جامعة بيروت العربية

وثائق ودراسات لبنانية
٣

مذكرات بيروتي

... عيتاني

١٩٧٧

A
956.92
I88m

جامعة بيروت العربية

B.U.C. - LIBRARY
5 MAY 1998
RECEIVED

مذكرات بيروتي

... عيتاني [١]

١٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

« مذكرات بيروتي » هو الكتاب الثالث الذي يصدر من سلسلة « وثائق ودراسات لبنانية » ٠ وكان من المفترض أن يوزع هذا الكتاب بعد اتمام طبعه عام ١٩٥١ ، لكن الرقابة على المطبوعات آنذاك تراجعت عن السماح بنشره ، علما بأنها كانت قد أعطت الأذن المسبق لطبعه ونشره ٠ وفعلا فقد لوحق مؤلف الكتاب ، وصودرت النسخ التي وجدت ٠

أما مؤلف الكتاب السيد عيتاني (١٩١٠ –) فقد حرص عند طبعه عام ١٩٥١ على كتمان اسمه الاول مع كونه وجيها بيروتيا معروفا له خدمات سياسية واجتماعية ٠ وعندما طلبت منه قبل اصدار هذه الطبعة السماح لنا بالكشف عن اسمه الكامل ، فضل الاستمرار في كتم اسمه الاول ، وعلى أن يعلن عن اسمه الكامل بعد وفاته ٠

توفيق راشد حوري

بيروت
شوال ١٣٩٧
تشرين أول ١٩٧٧

طبع في دار الاحد (البحيري اخوان) بيروت

بيروت عام ٢٠٠٠

كان والدي رحمه الله ، ونحن في البرازيل ، يحدثني عن بيروت كلما أتيح لي أن أجلس بجانبه في احدى الامسيات ، فيستعيد ذكريات شبابه ، ويحن الى مسقط رأسه ، ومراتع طفولته · لقد غادر بيروت الى البرازيل سنة ١٩٥٠ وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره · وكانت الهجرة في ذلك الحين غاية ما يطمح اليه الشباب في لبنان بعد أن ضاقت بهم سبل العيش ، وانتشرت البطالة ، واستأثرت طغمة من الاقطاعيين بموارد البلاد ، تستثمرها وتحتكرها لصالحها الشخصية · قال لي والدي : « كانت البواخر في ذلك الحين تغادر لبنان كل أسبوع وهي غاصة بزهرة شباب البلاد الذين يغادرون أرض الوطن طلبا للرزق ، وقل أن يعود منهم أحد ·

وكان رحمه الله يحثني منذ الصغر على زيارة بيروت ويقول : « ان بيروت يا بني من أجمل بلاد الشرق موقعا · اذا أطللت عليها من البحر رأيت أمامك مدرجات طبيعية من العمران والجنائن الغناء ، واذا أشرفت عليها من الطائرة رأيت مدينة تمتد على سيف المتوسط من الشمال الى الجنوب ، فيغسل البحر أقدامها ، ويزيد في بهائها ذلك الشاطئ الرملي الابيض الذي يمتد حتى ضواحيها حيث يصلها بقرى الاصطياف ·· كانت بيروت يا بني من أكبر المرافئ التجارية في حوض المتوسط ، فهي مركز التجارة لسورية والعراق وايران ·· ولكنني حين غادرتها سنة ١٩٥٠ كانت قد بدأت تفقد مركزها الاقتصادي العظيم وتصبح مرفأ عاديا للبنان ·

لله ما أجمل حياتنا في بيروت !! وما أجمل أيام طفولتنا فيها · كنا نسكن في رأس بيروت قريبا من الشاطئ ، وكانت تلك المنطقة منتزها للبلدة ، تنتشر فيها المقاهي بكثرة على طول الشاطئ حتى بناية الاونسكو ، ويلفها نطاق « الكورنيش » الجميل ، وقد غرست على جوانبه أشجار النخيل · لا

أسسى تلك السهرات العائلية التي نعمنا بها ونحن نستمع الى أم كلثوم وعبد
الوهاب وفريد الاطرش ،أو الى المتقدمين منا في السن يغنون « قدك المياس »
د « مرمر زماني • يا زماني مرمر » ••

وان أنسى لا أنسى صباح الاعياد •• أعياد الفطر والاضحى والمولـد
النبوي الشريف • فقد كانت المساجد تغص بالمصلين وهي تزيد على الثلاثين
مسجدا ، فاذا انتهت الصلاة وانتشر الناس يحيون بعضهم بعضا ، ويتبادلون
التهاني ، ذهب معظمهم الى ساحة الاتحاد •• الى العريسي والصمدي والوزي
والبحصلي وشاكر ورمضان ، الى أشهر معامل الحلويات في الشرق فتزودوا من
البقلاوة والبرما والمعمول أصنافا وألوانا •• كان البيروتيون في ذلك الحين
يحبون الحلويات كثيرا ، وكانت تجارتها أروج التجارات وأضمنها للربـح
والثراء •••

كنت استمع الى حديثه عن أوضاع لبنان السياسية والاجتماعية ، وعن
عائلات لبنان الاسلامية وغير الاسلامية ، وعن الطائفية والتعصب والوظائف •
وعن الانتخابات المزورة التي حدثت ثلاث مرات متوالية في عهد الاستقلال ،
وعن الاقطاعية والجهل والغرور ، وعن النزعات العربية والفينيقية والاقليمية ،
والانكماشية والانفلاشية •• وعن طبقة « القبضايات » التي تسيطر وتتحكم
بشكل غير رسمي ، مما لا مثيل له في بلاد العالم • فكنت استغرب ذلك لانني
فتحت عيني منذ طفولتي في البرازيل على بلد لم أر فيه وضعا من تلك الاوضاع
الشاذة ، ولم أسمع فيه صوتا لغير العدل والحق والقانون •••

كنت أتوق الى زيارة لبنان وطن آبائي وأجدادي منـذ مئات السنين ،
ولهذا أخذت ادون كل حديث أسمعه من والدي ، واسجل عنوان كل بيت ، وكل
عائلة ، وكل شخص كان يذكره لي ، قريبا كان أم صديقا •

وتوفي والدي رحمه الله ، منذ عشر سنوات بعد أن خلف لنا ثروة طائلة
نحسد عليها • وكانت آخر وصية له أن لا أنسى لبنان ، وأن أزوره ولو مرة
في حياتي •• وأن أقف على تلك الاماكن التي شهدت طفولة عائلتي ، وضمت
رفات آبائي وأجدادي ، فاجدد ذكراها واحيي بقايا سكانها •

والان بعد عشر سنوات ، تحملني الطائرة من البرازيـل الى بيروت ،
والحنين يملأ نفسي ، والشوق يدفع بي نحو وطني الاول •

حطت الطائرة في مطار خلدة •• وهو مطار دولي كبير • وتقدم منـا
موظفو الشركة لتسهيل مهمتنا ونقل حقائبنا وارشادنا الى الدوائر المختصة
لم أسمع في المطار كلمة عربية •• فكل الموظفين يتحدثون برطانة أجنبيـة
كنت أفهم منها بعض الكلمـات الفرنسية والانكليزية والارمنيـة والعبرية •
سألت أحدهم : « ألا يوجد موظفون من أبنـاء بيروت يتكلمون العربية » ؟؟
قال : « معظم هؤلاء من أبناء بيروت • يظهر أنك غريب عن هذه البلاد » ••

• ـ لست غريبا عنها بالفعل ، ولكنني بعيد عنها منذ نصف قرن ، منذ
غادرها والدي الى البرازيل •

• ـ اذن أنت آت اليها بزيارة •

• ـ نعم ••

• ـ لقد تغير فيها كل شيء • ان بيروت اليوم مدينة دولية ليس فيها
من المعالم القديمة أثر • فلقد جددت شوارعها وحدائقها ومعظم مبانيها بعـد
الحرب العالمية الاخيرة التي حدثت عام ١٩٥٣ •

غادرت المطار وأنا شاكر لذلك الموظف لطفه وحديثه ، واتجهت بسيارة
الشركة نحو العاصمة • ان البناء لا ينقطع على جانبي الطريق من المطار الى
قلب المدينة • والحدائق الكبيرة العامة منتشرة بين غابات الصنوبر • حدائق
الاطفال ، الى جانب أبنية منسقة تنسيقا لم أر له مثيلا في اوروبا • وأشـار
الدليل الى حديقة واسعة تقـع شرقي الطريق المتصل بالمدينـة • انها حديقة
الحيوان التي بنيت سنة ١٩٧٠ وهي تعد اليوم من أجمل حدائق الحيوان في
العالم • والى جانبها يقوم سيرك ولونابرك •• وأطلت علينا من بعيد أبنيـة
ضخمة تحيط بها حدائق وملاعب ومدرجات وحوض سباحة • فسألت عنها
الدليل فأجابني •• انها جامعة الاوزاعي التي أنشأتها جمعية المقاصد الخيرية
الاسلامية سنة ١٩٦٠ • وقد حولتها الحكومة الى متاحف وملاعب دولية بعد
أن أقفلت أبوابها سنة ١٩٨٠ •

وصلنا الى قلب المدينة • نحن الآن في ساحة الاتحاد كما كان يسميها
والدي •• لقد أصبح اسمها الآن ساحة الارز • وهي من أجمل ساحات المدن
الكبيرة •• ليس فيها قطر كهربائية • فقد الغيت كما علمت سنة ١٩٥٥ من
بيروت واستبدلت بسيارات نقل كبيرة « اوتوبيس » • وأجمل ما في تلـك
الساحة نفق السيارات الذي يبدأ من المرفأ وينتهي بضاحية فرن الشباك •

وهو نفق عريض تتشعب منه ممرات تتصل بأحياء المدينة ٠

نزلت في فندق « ناسيونال » وهو من أحدث فنادق البلدة ٠٠ وما أكثر الفنادق في بيروت ٠٠ لقد أصبحت هذه العاصمة مدينة سياحة واصطياف واشتاء ، ومركز استشفاء وقمار على شاطىء المتوسط ٠٠ وكان أول خاطر لمع في ذاكرتي أن أسأل عن محلات الحلويات التي طالما حدثني عنها والدي ، وعن جودة أصنافها الشهية ٠٠ فسألت عن الصمدي ولكنني لم أجد له أثرا ٠ وسألت عن العريسي ورمضان والبحصلي والوزي فقال لي أحد خدم الفندق المسنين ، وهو بيروتي عتيق : « لقد انتقلت هذه المحلات من الساحة ٠ وأكثر أصحابها تركوا هذه المهنة ، وبعضهم رحل الى مصر وبغداد فأسسوا محلات هناك ولم نعد نسمع بهم ٠ كنت أينما تجولت وكيفما التفت لا أسمع الا رطانة أجنبية ٠ ففي المحلات التجارية والدكاكين بضائع كل أسمائها وأسعارها أجنبية ٠ وفي الفنادق والمطاعم لوائح بأصناف الطعام والشراب لا أثر للعربية فيها ٠٠ انك تحتاج الى ترجمان وأنت في شوارع بيروت تتنقل بين متاجرها اذا لم تكن تتقن لغة أجنبية :

مراتع جنة لو سار فيها
سليمان ، لسار بترجمان
ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

دخلت بناية البريد وهي بناية ضخمة حديثة قيل لي : ان الحكومة بدأت بناءها سنة ١٩٤٧ ولكنها لم تنته منه الا منذ عامين ٠٠٠ والى جانب بناية البريد تقوم ساحة البرلمان تتوسطها حديقة صغيرة منسقة ، فيها تمثال ضخم للآله « بعل » الفينيقي ٠ قيل لي انه أقيم مكان الساعة الكبيرة التي كانت تشوه هذا الشارع ، و « تخربط » ساعات الناس ، وتفسد عليهم أوقاتهم ٠٠٠

حقا ان هذا الشارع الجديد ، شارع الحرية « اللنبي سابقا » من أجمل الشوارع التي شاهدتها في اوروبا وأمريكا ٠ وليس سر جماله في طوله أو عرضه ، فأبسط الشوارع في العواصم الكبرى أطول منه وأعرض ٠ ولكن جماله بتدرج ارتفاعه الذي يبدأ من سطح البحر ، من المرفأ ، وينتهي بغابة الصنوبر متصلا بشارع المطار ٠ فاذا وقفت في أعلاه شاهدت هذا الانحدار الجميل الذي ينتهي بسطح البحر ٠٠ واذا وقفت في أسفله شاهدت هذا

الارتفاع المتدرج الذي ينتهي بغابة الصنوبر ٠ وقد اقيمت على جانبيه أبنية حديثة منسقة تنسيقا هندسيا جميلا ٠

بعد أن استقر بي المقام في الفندق ، فتحت مذكرتي في المساء وأخذت أستعيد تلك المعلومات التاريخية التي حدثني عنها والدي ٠ أنا حفيد اسرة آل العيتاني ، وهي أكبر اسر بيروت وأكثرها تشعبا واتصالا بغيرها ٠ ان معظم أبنائها يسكنون رأس بيروت ٠ وهناك بيت جدي وأعمامي ، وقد انقطعت صلتنا بهم بعد بضع سنوات من هجرة والدي ٠ وهناك مئات العائلات التي دونت أسماءها وأسماء بعض رجالاتها فلأبحث عنهم ٠٠٠

ركبت سيارة أقلتني الى « الروشة » وهي من أجمل ضواحي بيروت ٠ راعني ذلك الخط الكهربائي الجميل الذي ينقل الناس من البر الى صخرة الروشة حيث بني في أعلاها مقهى صغير يؤمه السياح والمتنزهون ٠ انه أشبه بمصاعد الثلج التي تقام للتزلج والانتقال بين الجبال ٠ ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة للتمتع بفترة أقضيها في أعلى تلك الصخرة التاريخية الجميلة ٠ فانتقلت اليها وجلست في ذلك المقهى البديع يحيط بي البحر من كل جهة ٠ ورأيت خارج المقهى شيخا يجلس موليا وجهه نحو الغرب يدخن النارجيلة التي طالما حدثني عنها والدي ، وكنت أتشوق الى رؤيتها ٠٠ انها رمز الكسل الشرقي والخمول ، اللذين قضيا على كثير من الاسر البيروتية العريقة ٠ اذ كان رجالها يتحلقون حول الاراكيل ساعات وساعات دون عمل ، اللهم الا القيل والقال والتمتع بمرأى رأس النارجيلة وهو يحترق ، ويحرق معه أنفاسهم وأعمارهم ٠٠ راقني منظر ذلك الشيخ ، فاقتربت منه وحييته بالعربية ، فرد علي التحية بأحسن منها ٠ وبدت على وجهه امارات الاستغراب والدهشة ٠٠ انه يرى سائحا بقبعته وآلته التصويرية يتكلم العربية ٠٠٠

ـ أتسمح لي يا عم بالجلوس الى جانبك والتمتع بحديثك ؟؟

ـ أهلا بك يا بني ٠٠ كم أستأنس حين أجد شابا في سنك يتكلم العربية ٠٠ هذه اللغة التي قليلا ما نسمعها اليوم في هذه البلاد ٠

ـ أنا حفيد اسرة العيتاني يا عم ٠ غادر والدي هذه البلاد في الخامسة عشرة من عمره ٠ وأعمامي وأخوالي كثيرون ٠٠ وهم يسكنون هذه الضاحية وقد جئت لزيارتهم ٠٠

وابتسم الشيخ بحسرة ، وهز رأسه بألم وقال : « ولكنك لن تجد أحدا

منهم يا بني · ان بيت جدك يسكنه أحد أبناء الاسرة ، ويقيم فيه منذ زمن أمينا على عهد أصحابه وبعض ممتلكاتهم · لقد غادر جدك وأعمامك بيروت الى حلب على أمل أن يعودوا اليها ولكنهم لم يفعلوا ··

غريب ·· وأنسباؤهم من آل بيهم والحص والداعوق ونجا وقرنفل وسحمراني وطيارة وسبليني والعجم وغندور والشيخ ألا يمكنني الاتصال بهم ؟

— يظهر ان صلتكم ببيروت قد انقطعت منذ أمد بعيد فأنت تجهل كل شيء عنها ·

— نعم ·· يذكر والدي ان آخر كتاب ورده من بيروت سنة ١٩٦٠ حين انتهت الحرب العالمية ثم لم يعد يعرف شيئا عنها الا ما ندر ··

— انك لا تجد من هذه العائلات التي تذكرها يا بني الا عددا ضئيلا لا يكاد يذكر · فأكثرها ترك البلاد · هناك مئات العائلات التي فضلت السكن في بلاد الشام ومصر فهاجرت من بيروت ولم تعد اليها · أذكر لك منها آل مخيش والنصولي والجارودي والفاخوري والنقاش والبابا وحمود وسبليني واللادقي والحوري ونعماني وخالد وسلطاني والمخزومي والصلح وشاتيلا والبراج والغلاييني ، وأنا منها ، ودوغان واللبان وقليلات وبيضون وسوبرة وخرسا والزعني وحلواني وعريس وكنفاني وأبو النصر وفروخ وسجعان ومنيمنه وسنو ولبابيدي والنقيب وسعادة وفتح الله ونحاس ودسوم وطبارة ودبوس وحرب وبربير والاسير وشهاب الدين وسلام وخرما والعريسي وعانوتي وصغير وحسامي وقباني ويموت وزيدان وشعار وقريطم وحاسبيني وحبال ومكاوي والاغر وحماده وقصار ودعبول وزنتوت · وغيرهم ··· وغيرهم ··· ممن لا تحضرني أسماؤهم ·

وسألته عن عائلة « ص » فأجابني : لقد بقي منها شخص واحد يعمل مستخدما في بلدية بيروت · وسألته عن عائلة « س » التي كان والدي يحدثني عنها بشوق واهتمام ·· فأجابني : يوجد منها شيخ ، لديه مقهى صغير في المصيطبة · وعن عائلة « ب » فأجابني يوجد شخص منهم يشتغل حارسا في الليل · واسرة « ل » ··· بقي منها واحد حكم بالسجن في العام الماضي لانه قتل أخاه لخلاف مالي بسيط · واسرة « ن » التي عرفت بوطنيتها منذ القدم ·· لقد انقرضت هذه الاسرة يا بني لكثرة ما اضطهدت وشردت ، وقد اعتقل آخر

أحفادها ونفي لانه طالب بحقوق طائفته ·· فاعتبرت صرخته هذه شاذة نابية تثير الاحقاد · فأبعد عن البلاد ، ولم يسمح له بدخولها منذ عشر سنوات ·

لقد سدت أبواب الرزق في وجه أكثر هذه العائلات التي حدثتك عنها · كانت تسيطر على تجارة البلاد وسياستها منذ قرن ، ثم تقلص ظلها عن ميادين التجارة والوظائف والسياسة ، واستكانت الى الراحة ، ونامت على أمجاد الماضي ، وتراث الآباء والاجداد ، فدب الشقاق بينها ، وتنابذت على الالقاب ، وتنافست على المراكز ، وتحكمت فيها طبقة من الاثرياء الجهلة ، فأخذوا يصرفون شؤونها حسب أهوائهم ومصالحهم الفردية ، فكانوا يبيعون حقوقها ومستقبلها بيع السلع · وشعارهم : « بعدي الطوفان » ·

كنت شابا في الخامسة عشرة من عمري سنة ١٩٥١ حين كانت هذه الاخطار تحيط بنا ، وكان بعض المخلصين المفكرين منا يضعون هذه الحقائق أمام أعين الناس ، فيتهمون تارة بالتعصب ، وطورا بالاستثمار ، وحينا بالغرور ·· حتى وصلت بنا الحال الى ما تشاهده الآن ·

وأطرقت طويلا أفكر بهذا المصير الذي انتهت اليه بعض اسر بيروت الغربية الكريمة التي كان لها تاريخ مجيد على شاطىء هذا الازرق المتموج الذي شهد منذ أقدم العصور قيام شعوب وانقراضها ، ونشوء مدنيات وزوالها ·· ولا يزال يشهد ·· واستغرقت في حلم من أحلام اليقظة ، طاف بي على تلك المنازل التي طالما حدثني عنها والدي ، وعن السعادة التي رفرفت على سكانها طويلا ، وما آلت اليه اليوم ·· انها عبرة الاجيال ·· عبرة التاريخ ·· والتاريخ مليء بالعظات والعبر ···

كان محدثي يتفرس في وجهي فيرى الاشراق وقد غاض منه ، وعلته كآبة وحسرة ، فيعزيني قائلا : « لقد شهدت بنفسي هذه المآسي يا بني تمثل على مسرح بيروت · وكان زعماؤنا وقادتنا متنابذين متنافسين يهدمون بعضهم بعضا · وكانت قيادتنا الدينية معدومة لا أثر لها · وكان معظم الذين يتولون الحكم من أبنائنا يستغلونه لمصالحهم الشخصية ، ويضحون بمصالح طائفتهم وحقوقها ، حتى آلت بنا الحال الى ما حدثتك عنه ·

كنت أصغي الى هذا الحديث بكل جوارحي ، واستمع الى ذلك الشيخ يحدثني بمرارة وحسرة فأشاركه ألمه ، وان لم أكن أحس احساسه لانني غريب

عن الجو الذي يتحدث عنه ٠ استأذنته وانصرفت ، بعد أن أرشدني الى بيت جدي وأوصاني بأن أزوره وأتعرف الى حارسه الامين ، والح علي أيضا بزيارة صريح أحد أجدادي المرحوم نجيب عيتاني ونجله حسن في جامع المجيدية ٠ وصلت البيت ، وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، فدققت الباب ، فأطل علي كهل في السبعين من العمر محتفظ بنشاطه وهمته ٠

ـ مساء الخير يا عم ٠

ـ مساء الخير يا ابني ٠٠ تفضل ٠٠

ـ أنا يا عم اسامة العيتاني حفيد ٠٠٠٠ العيتاني ٠

ـ أهلا بك ٠٠ تفضل ٠٠٠ تفضل ٠٠٠

ـ دخلت البيت ،وأجلت النظر في غرفه وأثاثه ٠ فاذا كل شيء قريب من الصورة التي انطبعت في ذهني حين كان والدي يحدثني عن هذا البيت وغرفه وأثاثه ٠٠

ـ هل أنت نسيبنا يا عم ؟؟ ٠

ـ لي الشرف الكبير أن أكونه ٠٠ أنا اسمي كامل يا ابني ٠ ربيب اسرتكم الكريمة ٠ نشأت في خدمتها منذ الصغر وكنت أعامل كأحد أولادها ٠ رحم الله جدك كم كان طيب النفس ، سخي اليد ، ورحم الله أباك ٠ لقد كان في سني فربينا معا ٠٠ لقد ترك أعمامك وأولادهم البيت وسافروا الى حلب على أمل أن يعودوا ، ولكن ها هي السنة العاشرة تمر على انتقالهم ولم يعد منهم أحد ، وقليلا ما يكتبون الي ٠ لقد أخذوا معهم ما غلا ثمنه وخف حمله ، وتركوا الباقي أمانة لدي ٠ انني أعيش واسرتي بفضل خيرهم وبعض الاجور التي أجمعها من أملاكهم ٠٠

أخذت أطوف في غرف البيت وأتعرف الى زواياه الحبيبة التي طالما حدثني والدي عن جلساتها الجميلة ولياليها الممتعة ٠ ومررت بمكتبة استلفتت نظري فيها عناوين بعض الكتب ، فطلبت من العم كامل أن يفتحها لاتصفح بعض ما فيها ففعل ٠٠ أخذت أتصفح بعض تلك الكتب العربية والانكليزية

والفرنسية فرأيت عليها شروحا وتعليقات بقلم جدي ٠٠ وكان معظمها في التاريخ والاجتماع والادب ٠

ـ في هذه المكتبة درج ، يا بني ، أوصاني جدك رحمه الله أن أبقيه مقفلا ، وألا أفتحه الا لاحد أحفاده اذا حضر ٠٠٠ انها أمانة في عنقي منذ سنوات أستطيع الآن أن أردها اليك ٠٠ هذا مفتاح الدرج ، ويعلم الله انني لم أفتحه ولم أعرف ما فيه ٠٠

تناولت المفتاح من يده وقد ثارت نفسي رغبة في الاطلاع على هذا السر الدفين ٠ ماذا عساه يكون ؟ هل هي ثروة ستكون من نصيبي ؟ هل هي مجوهرات وتحف ؟ كلا ٠٠ كلا ، يبدو انها أغلى من ذلك كله ٠٠ انها ماذا ؟ ليس في الدرج سوى كراس ٠ يا لخيبة الامل ٠٠ تناولت الكراس بلهفة فاذا بالعث يكاد يقضي عليه ويأكل أوراقه ٠ « مذكرات بيروتي » هذا هو عنوان الكراس ٠٠ من يكون ذلك البيروتي العتيق ؟ وفتحت الصفحة الاولى وقرأت :
« هذه مذكرات كتبتها سنة ١٩٥٠ ٠ انها صورة حقيقية لا مبالغة فيها ولا غلو ، عن المجتمع الذي أعيش فيه ٠ دونتها وشهدت مآسيها وأنا شاب ، وكثيرا ما حدثتني نفسي بطبعها خدمة لطائفتي وأبناء وطني ، ولكنني كنت أجد الاوضاع السياسية والفكرية تحول دون ذلك ٠٠ فالصريح الجريء في الحديث عن تلك الاوضاع يرمى بالتعصب واثارة النعرات الطائفية ، وحرية الرأي تقود صاحبها دائما الى الاضطهاد والاتهام ، فآثرت أن أطويها لعل أحد أبنائي وأحفادي يطلع عليها فينشرها للعبرة والتاريخ » ٠٠

هذه حقائق مطوية ٠٠ شكرا لك يا عم كامل ٠٠ هذا أجمل ما ظفرت به في رحلتي هذه ٠٠ أستودعك الله والى اللقاء ٠٠

وانكببت في المساء على مطالعة هذه المذكرات ، ولم يغمض لي جفن حتى انتهيت منها ٠٠ فشعرت ان هناك عبئا ملقى على عاتقي ، وأمانة مقدسة في عنقي ٠٠ يجب أن أنشر هذه المذكرات مهما كلف الامر من تضحية وجهد ٠٠ وها هي بين يدي القارىء ليحكم عليها بما يشاء ٠٠ ان فيها عبرا وعظات ، لقوم يفقهون ٠ ولعلي بنشرها قد أديت الامانة ، وحققت الامل ٠

أسامة عيتاني

ابريل عام ٢٠٠٠

مذكرات بيروتي

الاهداء

الى الذين يؤمنون بان لبنان جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير ·

الى الذين يؤمنون بحقهم في أرض لبنان التي ضمت رفات آبائهم وأجدادهم ، وتراب لبنان الذي جبل بدماء أبطالهم وقادتهم منذ الفتح العربي ·

الى الذين يهمهم أن يؤمنوا حقوق أطفالهم في الدولة والوطن ، ويحفظوا تراث آبائهم في الارض والسكن ، ليعيش أحفادهم رافعي الرأس ، موفوري الكرامة كما عاش أجدادهم من قبل ·

الى هؤلاء جميعا أقدم مذكراتي ·

··· عيتاني

لِمَ دوّنت هذه المذكّرات ؟

« لبنان بلد الطوائف المتعددة ·· هذه حقيقة أولى ·· »

« الدستور اللبناني ينص على مراعاة الطائفية في توزيع المقاعد النيابية والوظائف الحكومية ·· هذه حقيقة ثانية » ·

« ما من قضية ، كبيرة أو صغيرة ، في لبنان الا ويشتم الكثيرون منها ريح الطائفية · ما من جمعية أو هيئة ذات طابع عام تتألف ، الا وينظر اليها من زاوية الطائفية ، أتكون طائفية مائة في المائة أم خمسون في المائة أم لا طائفية أبدا ؟·· تلك حقيقة ثالثة » ·

« ما من شخص بارز في لبنان ، الا وعليه « اتيكيت » تلصق به حقا أو باطلا ·· وتشهد بأنه متعصب لطائفته ، أو متعصب لغير طائفته ·· تلك حقيقة رابعة » ·

« ومع ذلك ، فهنالك من يقول لك بكل صراحة وسذاجة ، أو بكل نفاق ، يجب أن لا تأتي على ذكر الطائفية حرصا على وحدة الكلمة وتماسك الوطن ·· يجب أن لا تثير النعرات الطائفية » ·

نحن نعتقد أن الخوض في موضوع الطائفية لمعالجتها لا يعني أن الفاعل طائفي · ونعتقد أن التعامي عن الحقائق واتباع سياسة النعامة لا يغيران شيئا من واقع الحقائق ، ولا يحلان مشكلة » ·

« ان الحس الطائفي ، ان النعرة الطائفية ، ما زالت موجودة في لبنان · وعدم الكلام عنها لا يقضي عليها ، بل بالعكس فقد يجعلها تختمر في الخفاء ، ومن ثم تفسد وتتعفن وتصبح خطرة كالجرح غير المطهر الذي يتعرض للهواء (١) » ·

★ ★ ★

(١) من مقال عن الطائفية نشر في جريدة بيروتية ·

« كننا طائفيون في تفكيرنا واتجاهنا وأهدافنا ٠٠ واذا كنا نود حقا أن نحارب الطائفية فينبغي لنا أن نعترف قبل كل شيء بهذه الحقيقة ، لا أن ننكرها ٠ فان انكارها دليل على أننا لا نجد في محاربتها ٠٠ ولا يكفي أن نقول أننا لسنا طائفيين حتى نكون كذلك » ٠

« تلك هي الحقيقة ٠٠ كلنا طائفيون ، وان كان هناك تفاوت في قوة هذه النزعة » ٠

« ان المسلم عندنا لا يرتاح له بال اذا عين مسيحي في احدى الدوائر ولم يقابله تعيين مسلم ٠٠ وكذلك المسيحي يبادل أخاه المسلم الشعور نفسه (٢) » ٠

والواقع أن المجهود الذي نبذله في سبيل التوازن الطائفي في لبنان هو مجهود غير مثمر ٠ فنحن نسن القوانين للعلاج والاصلاح ، ثم نخرقها في سبيل تعزيز التوازن الطائفي ٠٠ نعلن عن وظائف شاغرة ، ونضع لها امتحانات دقيقة ، ونعين لجانا فاحصة ، وندعي التجرد والاخلاص واحلال الكفاءات محل الطائفيات ، ثم لا نلبث أن نخرق تلك القوانين ، ونشوه تلك الامتحانات ٠ واذا بالنتائج التي تسفر عن وجهها طائفية مائة في المائة ٠

لقد دونت هذه المذكرات سنة ١٩٥٠ وكتبتها لاخواني من المفكرين المسلمين والمسيحيين لعلي أؤدي بها خدمة تذكر لابناء وطني ٠٠

ولكنني ، ويا للأسف ، وجدت المفكرين من أمتي يعيشون كالجزر الصغيرة في خضم من الفوضى والتفسخ ، تسيطر على الكثيرين منهم أنانية جامحة ، وغرضية مؤلمة ، وأن الحسد والتنافس والمصالح الشخصية توجه تفكيرهم وتسيطر عليه ٠٠ فآثرت أن أطوي هذه المذكرات في زاوية من زوايا مكتبي حتى لا يحملها البعض على غير المحمل الذي وضعت من أجله ، وهو مصارحة المسلمين والمسيحيين بأمراضهم الاجتماعية بغية التقارب بينهم ، واحلال روح الوئام والاستقرار مكان التنافر والقلق ، وخلق قوة متحدة في هذا الساحل العربي الجميل توجه ، بفضل ذكائها ونشاطها ، سياسة الشرق الادنى فكريا واجتماعيا واقتصاديا ٠٠ آثرت أن أطوي هذه المذكرات لئلا يدس

(٢) من مقال لمجلة اسبوعية تصدر في بيروت ٠

عليها بعض الانتهازيين من المسلمين والمسيحيين ، فيدعون أنها انما نشرت لتزيد الطين بلة ٠

فلتبق مطوية حتى يحين زمن نشرها فتكون فيها عبرة وذكرى ٠ وكم من الحقائق في هذا الوجود تبقى مطوية حتى يتاح لها من ينشرها فتكون عظة تتعظ بها الاجيال ونبراسا تهتدي به ٠

٠٠٠ عيتاني

السُّنَّة في لبنان

أتيح لي قبل الحرب العالمية الاخيرة ، أن أزور ايطاليا · وكنت أجتاز المرحلة من جنوى الى نابولي في طريق جميلة تكثر فيها « الانفاق » القصيرة المتقطعة · وكان الى جانبي ايطالي يرتدي البزة العسكرية ، ويبدو أنه عائد من ساحة قتال · فدفعني الفضول والرغبة في المعرفة ، وايجاد وسيلة لقطع تلك المسافة الطويلة ، أن أتحدث اليه · فحييته ، فرد التحية بأحسن منها · والطليان شعب لطيف ألف السياح الاجانب ، واعتاد رؤيتهم والتحدث اليهم على اختلاف شعوبهم وأوطانهم ·

عرفت من حديثه أنه متطوع كان يحارب في اسبانيا · والمتطوع ، كما نعلم ، يذهب الى ميادين القتال بملء ارادته ، فليس هو جنديا يدعى الى الخدمة ، وعليه أن يمتثل للامر · انه يعتنق مبدأ فيؤمن به ، ويتطوع للدفاع عنه أينما هدد هذا المبدأ بالخطر · قلت في نفسي : « الله ·· الله لقد أصبح للطليان متطوعون يدافعون عن عقيدتهم الفاشية خارج بلادهم » ·

وسألني ذلك الشاب عن بلادي وديني ، وسألته بدوري عن مذهبه وديانته ؟ فقال : « أنا كاثوليكي لان والدي كاثوليكي وجدي كاثوليكي ··· وجد جدي وأمي وكل أفراد عائلتي ·· ولكنني لم أفكر يوما لماذا أنا على هذا المذهب ؟·· وهل هناك أصلح منه ؟·· من يدري » ؟

قلت : « صحيح ·· وأنا مثلك مسلم سني لان والدي وجدي وجميع أفراد أسرتي سنيين » · أجل لم يخطر ببالي مرة أن أفحص المذاهب الاسلامية وأفاضل بينها ·· ومن يدري لعلي لو فعلت ، لبقيت على مذهبي عن يقين ، أو لتشيعت لعلي وآله ·· ولكنني مسلم سني والحمد لله ، مؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبعيسى وموسى وابراهيم وجميع الانبياء

والرسل الذين بعثهم الله لهداية البشر · ومطمئن لعقيدتي لا أبتغي عنها بديلا ···

ومن مظاهر عزتي أنني حفيد المرابطين على هذا الساحل اللبناني الافيح منذ الفتح العربي · المرابطون المسلمون الذين تحملوا الغزوات الخارجية على اختلاف ألوانها ، فكانوا يصدون الفاتحين والمغيرين ، ويسيطرون على مقاليد التجارة البحرية في البحر الابيض المتوسط · بينما كان غيرهم من اللبنانيين معتصمين في الجبال لا يعرفون عدوا غازيا يصل اليهم ، ولا تجارة رابحة أو خاسرة يمارسونها ، ويرفعون اسم لبنان عاليا في ميادينها ·

لقد كان السنيون يسيطرون على مدن الساحل ويديرون دفة السياسة الداخلية والخارجية فيها · وكانوا على صلة وثيقة ، قبل العهد التركي وفي غضونه وأثناء مرحلة الانتداب الفرنسي ، بالملايين من اخوانهم الذين يعيشون في مصر وسوريا والعراق والحجاز وتركيا · وكانت هذه الصلات في مصلحة لبنان ، تعود عليه بالنفع والخير العام ، وتعزز مركزه التجاري والدولي · وكان من الطبيعي أن ينزعوا الى الوحدة العربية ، ويدينوا بالقضية العربية ، ويناضلوا في سبيلها ، ويستشهدوا في الثورة العربية وعلى أعواد المشانق في عهد جمال السفاح من أجلها ، وان تكون صحفهم ومجلاتهم وجمعياتهم وقفا عليها · وجاء عهد الاستقلال فطبع لبنان بطابع خاص ، طابع السياسة المتزنة بين الشرق والغرب ، وخفف السنيون من حدة سياستهم ، ورضوا بالامر الواقع ، واقتنعوا بالوضع الراهن على أن تعاد اليهم حقوقهم التي فقدوها بسبب نضالهم وسلبيتهم ليس الا وعلى أن يوجه لبنان حقيقة في هذا التوجيه الدولي الصحيح فيكتسب ثقة الجميع وحب الجميع ··

ولكن السياسة الداخلية والخارجية في عهد الاستقلال ما لبثت أن انقلبت الى أسوأ مما كانت عليه في عهد الانتداب · فاذا بها في الدوائر والمؤتمرات والمهاجر لا تستهدف الا غاية واحدة · هي اظهار لبنان كدولة مارونية مسيحية تنظر الى السوري أو المصري أو العراقي كما تنظر الى الياباني والصيني والهندي ، ولا نقول الفرنسي مثلا أو الايطالي · واذا بهذه السياسة تحافظ على أوضاع الانتداب الراهنة في التوجيه والتوظيف والمظاهر الشعبية · واذا ببعض المسلمين السنيين يتنازلون عن حقوقهم وحقوق طائفتهم ويساومون عليها في سبيل الحصول على مراكز في الدولة تضمن لهم مصالحهم ونفوذهم ·

ان السنيين في بيروت مراكز الثقل في سياسة لبنان الداخلية والخارجية ،

فاذا ضعفوا وضاعت حقوقهم أصبح السنيون في طرابلس وصيدا والبقـاع مهددين بالخطر في هذا البلد الذي بني أساسه على الطائفية ٠ واذا ضعـف نفوذهم في الميدان السياسي الخارجي ، ضعف معه نفوذ السوريين والعراقيين والاردنيين والمصريين ٠

يجب أن يفتح السنيون في الساحل أعينهم على هذه الحقائق ، فيدركوا الاخطار المحيطة بهم ، ويتكتلوا من جديد لاستعادة حقوقهم التي خسروهـا بسبب شهامتهم ونضالهم عن حريتهم واستقلالهم ، وأن يراقبوا زعماءهـم وقادتهم ، فيشهروا الماديين الانتهازيين الخونة منهم الذين يتنازلون عن حقوق طائفتهم في سبيل وصولهم الى الكرسي ، وأن لا يقبلوا بديلا عن مركزهم العريق ي الميادين الثلاث التي كانوا دوما مسيطرين عليها ٠

التجارة والاقتصاد ٠

السياسة الداخلية ٠

السياسة الخارجية ٠

ولا بقاء لهم ٠٠٠ ولا ضمانة لوجودهم على هذا الساحل ، الذي هو ارثهم وارث آبائهم وأجدادهم ، الا اذا ظلوا دعامة قوية في هذه الميادين ٠٠٠

الشيعة في لبنان

للشيعة في لبنان تاريخ مجيد ٠ فلقد دخلوا البلاد بعد الفتح العربـي واستوطنوا فيها ، وسكنوا الساحل والجبل ، وانتشروا في كسروان والشوف والمتن ووادي التيم والبقاع ٠ وكان منهم أمراء ومشايخ ٠ ولا تزال آثارهـم بارزة في قرى كسروان والشوف حتى اليوم ٠ ثم تقلص ظلهـم عـن تلـك المقاطعات بسبب الفتن الاهلية ، فانحصروا في جبل عامل والبقاع والساحل وبقي نفر ضئيل منهم في قرى كسروان والشوف ٠

والشيعة في لبنان ينتمون الى المذهب الجعفري وهو أقرب المذاهب الى السنة ٠ بل انك لا تجد فروقـا جوهرية بينهمـا الا فـي بعض الاجتهـادات الشخصية في تفسير النصوص ، وتأويل الاحكام مما لا يؤثر في جوهر الدين ، أو يمس أركانه الخمسة ٠

وتخطو الطائفة الشيعية في هذه الفترة من الزمن خطوات واسعة نحو التقدم والرقي ٠ فهي تقبل على العلم والحضارة بنفس متعطشة ، واستعداد فطري موهوب ٠ ولقد أخذت تبرز فيها نخبة طيبة من الشباب المثقف الذي يسعى لرفع مستوى طائفته ٠ فلقد ظل جبل عامل طوال عهد الانتداب مهملا محروما من كل مقومات الحضارة والرقي ، فلا طرق تصل قراه ، ولا مدارس تكافح فيه الجهل والامية ، ولا مياه نقية تروي ظمأ السكان وتبعد عنهم الامراض ولا كهرباء تنير سبلهم وبيوتهم ٠ حتى جاء عهد الاستقلال وبدأ المسؤولـون يحسون بعض الواجب نحو هذه البقعة من أرض الوطن ، ونحو هذه الطائفة التي تشكل ربع سكان البلاد ٠

ولقد أفاد المهجر الافريقي الطائفة الشيعية فوائد مادية واجتماعية تذكر٠ فالفضل للمهجر وحده فيما يتمتع به بعض أفرادها من ثروات طائلة ، وفيما

يحققه رجالها المخلصون من مشاريع علمية وعمرانية • ولا ريب ان مصلحة الطائفة الشيعية في لبنان تقضي عليها بالتضامن دائما مع الطائفة السنية الأم ، وأن تتبنى موقفها في سياسة البلاد الداخلية والخارجية • ولا ضير عليها اذا تزعمت الطائفة السنية توجيه المسلمين في لبنان • فليست القضية قضية تنافس ومزاحمة ، وانما هي قضية اختبار وممارسة وتقدم اجتماعي •••

لقد كان هتلر كاثوليكيا في مذهبه ، ولكنه رأى مصلحة بلاده تقتضي الاذعان لاعتناق السيادة البروتستانتية ففعل •

ان سيادة الطائفة السنية من حيث التوجيه السياسي الداخلي والخارجي يساعد على اهتمام الرجال المسؤولين بالطائفة الشيعية ومنطقتها المحرومة من نعم الحضارة والرقي • فلقد أثبتت العهود المختلفة في لبنان أن الانتداب لم يكترث بوجود هذه الطائفة ، ولم يعرها أدنى اهتمام • وأن أبناءها حين يتولون الحكم ينصرفون الى حزبيتهم الشخصية والعائلية ، ويهمهم ، أو يهم بعضهم على الاقل ، بقاء طائفتهم على جهلها وتأخرها ليتمكنوا من سيادتها وحكمها حكما اقطاعيا يؤمن مصالحهم • فالسيادة السياسية السنية ، اذا توفرت ، لا تنتقص من حقوقها ، بل تضمنها وتسعى الى تحقيقها • ونحن اذ نطلب ذلك لا نفعل عن أنانية ملية بل عن اعتقاد راسخ بما نطلبه وندعو اليه •

وهناك خطر جثيم يهدد جبل عامل ، ولا بد أن يهتم به المسؤولون عن الحكم وزعماء الطائفة قبل استفحاله • وهو هجرة العامليين الداخلية الى مدن الساحل ، ولا سيما بيروت ، وامتهانهم أبأس المهن في سبيل العيش الكفاف • فأينما تجولت في بيروت تجد ألوف الشباب والاطفال الذين هم في سن الدراسة والتحصيل والتربية ، والتوجيه ، حفاة عراة يعتسفون الشوارع في الليل والنهار ، يبيعون الصحف ، ويحملون السلال ، ويمسحون الاحذية ، ويكنسون الطرق • بينما قراهم مهجورة ، وأراضيهم بور ينعق فيها البوم والغراب • ولو ذهبت الى أية قرية من قرى جبل عامل وسألت عن عدد سكانها لوجدت عشرهم ، على الاكثر ، يسكن القرية لعجزه عن الهجرة ، أما التسعة الاعشار فقد نزحوا الى بيروت • فاخلاء جبل عامل من سكانه يعود عليه بالخراب ، وعلى مواسمه بالبوار ، ويفتح عيون اسرائيل عليه ، وهي الخطر الجاثم على حدوده فتبتلعه لقمة سائغة ، ولا تجد من يدافع عنه ويحميه ، بعد أن هجره أبناؤه الى افريقيا أو بيروت • ولقد رأينا هذه التجربة الواقعية عام ١٩٤٨ يوم احتلت اسرائيل عددا كبيرا من قراه في يوم وليلة دون أن تصطدم بمقاومة •

ان جبل عامل أخطر مناطق لبنان المهددة بالاجتياح من قبل اسرائيل • فاذا لم تتوفر لابنائه الحياة المستقرة ، وتشحذ عزائمهم للزود عنه ، فستتجدد فيه مآسي حيفا ويافا وعكا ولن يكون مصيره خيرا من مصيرها •

الـــدّروز في لبـَنان

وما كـان الدروز قبيـل شـر وان أخذوا بما لـم يستحقـوا
ولكـن ذادة وقـراة ضيـف كينبـوع الصفا خشنوا ورقوا

الشاعر القروي

لسنا في مجال بحث المعتقدات الدينية ، ولا يهمنا ذلك في هذه المذكرات• فالدرزي كالسني أو الشيعي حر في مذهبه المنبثق عن جوهر الدين الاسلامي• والفرق التي نشأت في الاسلام ، انما هي مظهر لحرية الفكر التي حققها هذا الدين ، وجعل أتباعه يؤمنون بقدسيتها • فالدرزي لا يشارك أخاه السني والشيعي في الصيام والصلاة والزكاة والحج ، ولكنه يشاركه في معتقده التوحيدي ، وايمانه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم • ونظام الطبقات عند الدروز لا مثيل له عند أية طائفة أخرى في لبنان • فهو مبني على مراتب دينية واجتماعية تشبه الى حد ما مراتب الصوفيين • والدرزي محب للنظام والتضامن مع بني ملته ، يحترم رؤساءه ويصدع لاوامرهم ، وهو حريص على تقاليده الموروثة ، وأخلاق الرجولة والشهامة التي عرفت بها طائفته منذ القدم • هذا اذا ظل في قريته ، أما اذا هبط العاصمة وسكنها طويلا ، فالملحوظ أن طبيعته تفسد ، وأنه يخسر الكثير من خصائصه ، فتراه متساهلا في كثير من معتقداته وتقاليده الاجتماعية الخاصة •

ومن المعروف عن هذه الطائفة ، أنها في سياستها الخاصة ، تساير العنصر القوي في البلاد ، وأنها تعمل بوحي المصلحة دائما • فبينما تجد عامة أبناء الطائفة يميلون نحو السنة في لبنان ، تجد البعض من زعمائهم يسايرون أصحاب النفوذ من الموارنة ، ويودون أن يجروا طائفتهم الى هذا الاتجاه • كما

نجد بعضهم يؤثر الوقوف على الحياد · ولا شك أن المسلمين في البلاد العربية والاسلامية يعتبرون الدروز جزءا لا يتجزأ منهم ، ويلقبونهم بالمحمديين · وهم يتمتعون بمراكز سياسية وادارية مرموقة في البلاد الاسلامية · ولقد أثرى الكثيرون منهم على حساب تلك المراكز · وهم يعيشون في تلك البلاد كسكانها المسلمين ، لا يجادلهم أحد في معتقداتهم الخاصة ·

ويهم المسلمين السنة في لبنان أن يحدد الدروز موقفهم بصراحة ووضوح حين يقوم نزاع ثقافي فكري أو عنصري قومي بين السنة والموارنة · يهم السنيين ذلك ، لانهم يريدون أن يطمئنوا الى أن من يمسك الحبل « من طرفهم » سيكون مخلصا وفيا ، ولا سيما اذا كان من أبناء عمومتهم أو حلفائهم ·

الموارنة في لبنان

حكى لي صديق ماروني متسامح هذه القصة وأنا أرويها على ذمته ·

دخل لبناني ماروني ، عقب الحرب العالمية الاولى فرنسا مارا بأحد المخافر الالمانية الصغيرة على الحدود الشرقية · ولما أبرز جواز سفره تعجب الموظف الفرنسي ، وكان حديث السن ، كيف أن الجواز اللبناني موقع من مفوض سام فرنسي · ولم يكن ذلك الموظف يعرف شيئا عن لبنان · وشرح له الماروني اللبناني كيف أن بلاده تقع تحت الانتداب الفرنسي ، وكيف كانت حصة فرنسا حين تقاسمت الدول الكبرى ارث « الرجل المريض (١) » كما يتقاسم الاخوة تركة أبيهم · وختم الماروني حديثه مع الموظف بقوله : « ونحن الموارنة في لبنان أصدقاء فرنسا » ·

وهنا زاد عجب الموظف ، وفغر فاه مشدوها ·· لقد سمع الكثير عن الالمان والروس والاتراك ، والشيء القليل عن العرب والفرس وغيرهم ولكنه لم يسمع « بالموارنة » · وتعجب أيضا من اتقان ذلك الماروني الشرقي اللغة الفرنسية كأحد أبنائها · وسأله هل درست الفرنسية في فرنسا ؟ فأجابه كلا ·· بل في لبنان ، وفي مدارس الارساليين التبشيرية · ولما كان الموظف علمانيا يكره رجال الدين فقد استعاذ بالله عند ذكرهم ·· وأخيرا ·· وبعد مخابرة وزارة الاستعمارات والخارجية استطاع المأمور أن يعرف من هو اللبناني الماروني ؟؟ ولا شك أنه كان معذورا في جهله ، اذ أن الموارنة طائفة لا توجد الا في لبنان أو في المهجر من أصل لبناني · والمهاجرون منهم يظل معظمهم على صلة بالارض الأم ، يعمرها بأمواله ، ويغمرها بعطفه واحسانه · وأكثر القرى

---

(١) لقب تركيا أثناء الحرب ·

اللبنانية المارونية عمرانا بالمدارس والكنائس والابنية الحديثة انما هي ثمرة جهود المهاجرين الاوفياء ٠

ان اللبناني الماروني طيب القلب مخلص ، اذا لم تفسده الدعاوات الاجنبية الخبيثة ٠ فاذا أفسدته وأثرت فيه انقلب الى مواطن يكره كل مذهب ، ويؤمن بان لبنان وطن قومي ماروني ، فيعتنق هذه الفكرة ، ويبشر بها ، ويعمل على تحقيقها ٠

ولقد نجحت فرنسا في عهد الانتداب بابعاد المسلمين عن الوظائف الرئيسية ، وعهدت بها الى الموارنة لتجعل منهم نقطة ارتكاز لسياستها وثقافتها في الشرق ٠

ولقد جلت فرنسا عن لبنان ، ولكن روح الموظفين الذين لازموا عهدها ، وعموا بخيراته لا تزال تسيطر على الدوائر الحكومية ، وتوجه سياسة الدولة توجيها بعيدا عن العدل الاجتماعي ، يثير الطوائف الاخرى ويجعلها تشعر بالغبن والتعصب والمصالح الشخصية ٠ فاذا كان الموارنة في لبنان يرغبون في التعاون مع مواطنيهم المسلمين الذين يشعرون بأن هذه البلاد هي تراث آبائهم وأجدادهم ، وجزء من تاريخهم وكيانهم ، فما عليهم الا أن يقلعوا عن سياسة الوطن الماروني المسيحي ، ويؤمنوا بأن لبنان للجميع ٠٠ وأن يقولوا ذلك في بيوتهم وكنائسهم لا بأفواههم وخطبهم ٠

وكلمة حق لا يراد بها باطل ، نقولها في ختام هذا الفصل ٠٠ ان وجود الموارنة في لبنان وانكماشهم في سياستهم الخارجية يقرب اليهم اخوانهم المسلمين ويجعلهم يعتدلون أيضا في نظرتهم الى وحدات عربية أو اسلامية سياسية لا يعرفون مصيرهم فيها ٠ هذا اذا لمس المسلمون تقاربا من الموارنة ، وعدلا اجتماعيا يوزع بينهم على السواء ، وعدولا منهم عن فكرة الوطن القومي٠ أما اذا ظل الموارنة على سياستهم واتجاههم ، فمن حق المسلمين أن يبحثوا دائما عن وحدة قومية عربية أو دينية اسلامية يندمجون فيها لتضمن مصالحهم ، وتحفظ شخصيتهم ، وتحمي تراثهم في هذه البلاد ٠

الرّوم الأرثوذكس في لبنان

كان الداخل الى المكتبة العامة في زوريخ عام ١٩١٧ يشاهد بين القراء شابا معتدل القامة ذا عينين ضيقتين حادتين ، منكبا على الكتب يلتهمها التهاما ٠ لا يكاد يفرغ من كتاب حتى يتناول آخر ٠ وكان قيم المكتبة يعجب بهذا الشاب الذي يدخل المكتبة في التاسعة صباحا ولا يغادرها الا في السادسة مساء ، وقليلا ما كان يتغيب ساعة واحدة وقت الظهر لتناول الغداء ٠

وفي أحد أيام آذار من ذلك العام تفقد القيم ذلك القاريء المواظب ، الذي كان كثيرا ما يستأنس بوجوده ، ويستغرب من جلده وصبره على المطالعة ، فلم يجده ٠٠ ودقت الساعة العاشرة والحادية عشرة والشاب لم يحضر ٠٠ ومضى اليوم ٠٠ والايام ٠٠ وانقطع ذلك « الزبون » الوفي عن معين المعرفة والفكر ، عن مكتبة زوريخ ٠

وبعد ثلاثة أسابيع من صباح ذلك اليوم الذي تغيب فيه الشاب عن مكتبة زوريخ ، كان قطار حديدي مقفل يغادر ألمانيا عبر الحدود السويسرية في طريقه الى بطرسبورغ يحمل أخطر ثائر في هذا العصر ، وأصلب أصحاب المعتقدات والمذاهب ٠ كان يحمل ذلك الشاب الحريص على القراءة والبحث ، اليانوف أو لينين زعيم الشيوعية الاول ٠

قليلون هم الذين كانوا يعرفون شيئا عن هذا الشاب الثائر الذي انطوى على نفسه مدة من الزمن يعيش في بيت اسكافي ألماني ، يثقف نفسه ، ويغذي خياله ، ويحلم بأكبر انقلاب عرفه هذا العصر ٠

كانت صافرة ذلك القطار مؤذنة بأعظم ثورة عرفتها روسيا واهتز لها العالم ٠ وقاد لينين الثورة ، وقلب المعتقدات ، وقطع العلاقات الدينية مع روم

الشرق فأصبحت هذه الطائفة في لبنان وليس لها قوة دولية تحميها كما تحمي فرنسا الكثلكة في الشرق والمارونية في لبنان ·

وشعر الروم الارثوذكس ، وهم العرب الاقحاح ، أن مصيرهم أصبح مرتبطا بالبلاد العربية وليس بروسيا أو أثينا ، وان مصالحهم الحيوية مشتركة مع طوائف البلاد ولا سيما المسلمين منهم ·· فهم الذين تربطهم بهذه الطائفة روابط عريقة تمتد جذورها الى عهد الاسلام الاول ·· وهم الذين ساعدوا المسلمين على فتح هذه البلاد · وهم الذين آزروا الامويين ورافقوهم الى الاندلس ثم أخرجوا معهم منها · وهم الذين قال بطريركهم حين حاصر محمد الفاتح القسطنطينية واشترط البابا لمساعدة الروم انضمام كنيستهم لروما : « كلا ··· عمامة محمد ·· ولا قلنسوة البابا » ·

وظل الروم كما يحدثنا المؤرخ الالماني بروكلمن ، بعد فتح القسطنطينية يتمتعون بحرية مطلقة · وكان لبطريركهم من القوة والسلطان في عهد العثمانيين أكثر مما كان له في عهد بيزنطية نفسها ، وكانت طقوس التعميد والزواج والدفن والاعياد والمواسم تقام علنا في أبهة وعظمة ·

وانتقل مركز الكرسي البطريركي لروم الشرق الى دمشق ·· ودمشق قلب العروبة النابض ، وجناحها الخفاق ، فتلقح الكرسي بقوتها ·· وكان أبناء الطائفة في سوريا ولبنان ، ولا يزالون ، في طليعة المجاهدين أصحاب العقيدة العربية الصادقة ، الذين يفهمون جوهر العروبة وحقيقتها التاريخية ·

يشكل الروم في لبنان طائفة لها وزنها في السياسة والاقتصاد والفكر · ولا شك أن مصلحتهم تقضي عليهم بمد يد التعاون الى مسلمي لبنان ، الى السنيين منهم بصورة خاصة · فاذا ضعف نفوذ السنة ، وتقلص عن الساحل ، ضعف نفوذ الروم وأصبحوا أقلية مهددة بالزوال ، تتحكم فيها الاكثرية المارونية وتفرض سلطتها عليها · وهم يلعبون اليوم في لبنان : « دور التوازن » في السياسة الداخلية ، فيميلون تارة نحو المسلمين ، وطورا نحو الموارنة حسب مصلحتهم ·· وهذه السياسة الخاصة · سياسة التوازن يقودها نائبهم الكبير الذي لم يعرف لبنان أقدر منه وأدهى في اللعب على جميع الحبال ·· وليس على حبلين فحسب · وهذا السياسي المحنك ، والعبقري الفذ ، يعرف مواطن الضعف والقوة في كل رجال الحكم فيستثمرها لنفسه ولطائفته · وهو يدرك كل الادراك أن مصلحة طائفته تقضي عليها دوما بأن تظل مخلصة للطائفة السنية وفية لعهدها العريق معها ·

الروم الكاثوليك

هذه الطائفة موجودة في لبنان قبل الفتح العربي · وكانت المنافسة معها شديدة بعد الفتح · وبالرغم من الحروب الصليبية في القرون الوسطى ، واحتكاك الشرق بالغرب في القرن التاسع عشر ، فقد بقيت منافستها على ما كانت عليه مع بقية الطوائف ·

والروم الكاثوليك في لبنان دمثو الاخلاق ، من عائلات عريقة رفيعة التهذيب · وهم يشكلون نسبة عددية تسمح لهم بالتمثيل النيابي ·

البروتستانت

أما الذين تركوا مذهبهم من الروم واعتنقوا المذهب الانجيلي « البروتستانت » فهم الذين لم يتفاهموا مع « خوري الضيعة » أو الذين التحقوا بخدمة المعاهد الاميركية والانكليزية كمدرسين وموظفين ·· وهم يشكلون أقلية لا وزن لها في ادارة دفة البلاد الداخلية والخارجية ·

الاقليات

وفي لبنان طوائف أخرى قليلة العدد منتشرة في مدن الساحل أكبرها اليهود · وهي لا تشكل قوة ولا نسبة عددية تسمح بتمثيلها النيابي ·

آل شهاب [١]

هذه أسرة عربية عريقة ، يذكر المؤرخ « باز » أنها جاءت من الحجاز في أواخر أيام الصليبيين • ويقول الامير حيدر الشهابي في تاريخ لبنان : « ان نسب الاسرة يمت الى قريش » • وقريش كانت ، وما تزال ، تستوعب كل مدع وأصيل •

اعتنقت هذه الاسرة الديانة المسيحية قبيل عهد الامير بشير الشهابي الكبير • وكانت سنية المذهب قبل ذلك • على أن الكثيرين من رجالات الدروز يرجحون بأن الشهابيين في الشوف كانوا من دعاة المذهب الدرزي سرا ، وأنهم حافظوا على سنيتهم عهد الاتراك تمشيا مع سياسة الدولة •

وليس الشهابيون أول من تنصر في لبنان • فقد تنصر الكثيرون في أواخر أيام السلجوقيين وأوائل أيام العثمانيين هربا من اضطهاد الامراء الاتراك بعضهم لبعض •

وكان الامير بشير خاضعا لولاية أحمد باشا الجزار ، يتلقى منه الاوامر وينفذها ، ويعمل على ارضائه خوفا من بطشه ونفوذه • وكان الجزار يكتب لعملائه : « اذا خان العبد مولاه ، استبدله بسواه » • ولا شك أن الطائفة السنية خسرت عائلة عريقة وكريمة بتنصر الشهابيين ، وان الموارنة كسبوا أسرة تحمل لقب الامارة ، وكسبوا فوق ذلك أملاك تلك الاسرة من قرى ودساكر وهبتها للاديرة المارونية • ولعلها الاسرة المورانية الوحيدة التي تحمل لقب الامارة بحق • اذ ان كل ذكر من آل شهاب يلقب بالامير منذ ولادته • ولقد بقي قسم من الشهابيين على مذهبه السني وسكنوا جنوب لبنان ولا يزالون فيه •

يؤثر الامراء الشهابيون الوظيفة على أي عمل آخر • وقل أن تجد دائرة في الدولة الا وفيها شهابي أو أكثر • وهم مخلصون لعقيدتهم التي ارتضوها • وحينما كاد التنافس والجفاء يؤديان الى احتكاك المسلمين والمسيحيين في أول عهد الاحتلال ، لم يحاول الشهابيون أن يصلحوا ذات البين ، وأن يكونوا رسل سلام ووئام ، باعتبارهم يجمعون المجد من أطرافه •• الاصل الاسلامي ، والمذهب الماروني • ولقد كان موقفهم من العروبة في لبنان أغرب ، اذ أنهم لم يحركوا ساكنا للدفاع عنها حين اشتد الصراع بينها وبين النزعة الفينيقية والاتجاهات الشعوبية المختلفة • فهم يؤيدون الاكثرية المارونية في اتجاهها وميولها السياسية • وليس لهم طابع سياسي أو قومي مستقل يتفق وامارتهم وأمجادهم السابقة • وقد حاول أحدهم أن يؤيد سياسة المحور ، تأمينا للمستقبل ، أثناء الحرب الاخيرة ، فاعتقل طويلا في قلعة راشيا وبقي مغضوبا عليه حتى عهد الاستقلال •

ان الشهابي معروف بنزاهته في الوظيفة ، واخلاصه للدولة ، وتأييده لحكامها ما داموا في الحكم • ولقد استغل الفرنسيون هذه الصفات أيام الانتداب فملأوا بهم الدوائر والشركات حتى بلغوا أعلى المراتب الادارية ، وكذلك ظل شأنهم في عهد الاستقلال •

ان آل شهاب يمثلون نخبة العائلات المسيحية ، وبوسعهم ، اذا أرادوا ، أن يحققوا سياسة التقارب بين السنيين والموارنة في لبنان ، وأن يعدلوا كثيرا من الاوضاع الطائفية • ولكنهم لا يفعلون حرصا على مصالحهم الشخصية في الدولة • والحكام يدركون أهمية هذه الاسرة والدور الذي يمكن أن تلعبه ، فيقربونها ويقلدونها أسمى المراكز حتى تحافظ على سياستها التقليدية في لبنان • ولقد انفقت حكومة الاستقلال ما يقرب من مليون ليرة خلال خمس سنوات على قصر الامير بشير لاعادة ترميمه تمجيدا لذكراه • ومن يدري لعل بعض الحكام يحلمون باعادة لبنان الى عهد الامارة ، وارجاعه مزرعة اقطاعية تحكمها أسرة جديدة تستحدث لقب الامارة وتعود الى بيت الدين فتجعل منها مقرا ، ومن قصر الامير بشير عاصمة ومستقرا •

ان ميثاق ١٩٤٣ الذي آخى بين الطوائف لا يجبر المسلمين ، ولا غير المسلمين ، على تمجيد ذكرى الامير بشير • اذ ما الحكمة من تمجيده ؟•• ألأنه عربي قريشي كما يدعي أحد أحفاده ، وفي لبنان كثير من الاسر العربية العريقة بعروبتها ؟ أم لانه حارب الدولة العثمانية ، وقد كان في الواقع تبعا

للوالي الالباني أحمد باشا الجزار ؟٠ أم لانه كان مسلما فتنصر ؟؟٠ أغلب الظن أن تمجيده يعود لهذا السبب الاخير ٠٠ واذا كان من حق المسلمين أن يصارحوا اخوانهم الموازنة بالحقائق ، فصلاح الدين الايوبي ، في نظرهم ، أجدر بالتمجيد والتقديس من الامير بشير ، وأحق بأن ترفع صورته في كل بيت مسلم ، وتبعث ذكراه في كل قلب ٠ فمن السخف حملنا على جعل الامير بشير بطلا قوميا ، فنحن نعترف به بطلا شهابيا ٠ هذا اذا وافق جميع آل شهاب على ذلك ، المتنصرون منهم والذين حافظوا على اسلامهم ٠

كنت أتحدث مرة الى شخصية درزية كبيرة لها في تاريخ الوطنية والجهاد سجل حافل ٠٠ فقال لي : « هناك حقيقة تاريخية يجب ألا يتناساها الشهابيون ٠ فلو لم يظهروا أنهم سنيون لما استطاعوا أن يتغلبوا على بني معروف في الجبل ٠ لقد ساعدتهم الدولة العثمانية يومذاك لانهم مسلمون سنيون » ٠

نحن لا نطلب من هذه الاسرة الكريمة أن ترجع الى دينها الاول ، ولكننا نطلب منها ألا تنسى أصلها الذي تعتز به ، وأن تشعر بأن هذا الاصل يحتم عليها واجبات لا ينبغي أن تتهاون فيها ٠ هو يحتم عليها ألا تقف مكتوفة الايدي في صراع الشعوبية والعروبية على هذا الساحل العربي ٠٠ ويحتم عليها ألا تذعن لفكرة الوطن الانعزالي المسيحي الذي ينظر الى العرب المجاورين كما ينظر الى اليابانيين والارجنتينيين والهنود ٠٠ لا صلة نسب تربطه بهم ، ولا آصرة تاريخ مشترك وجغرافية طبيعية تشده اليهم ٠

ويحتم عليها أن تكون عنصر وئام وتقارب بين المسلمين والمسيحيين ، فهي خير من يحمل هذه الرسالة ويسعى اليها ٠

أما أن يظل موقفها في لبنان مستمدا من مصالح أفرادها فحسب ، وأن تستغل لقب الامارة لهذه المصالح ، وأن تحتفظ في عهد الاستقلال بوضعها الذي كانت عليه في عهد الانتداب ، ذلك الوضع الشاذ الذي تمثل بموقف شخصية كبيرة منها حين منح وساما فرنسيا بسيطا في حفلة رياضية فقبله قائلا : « انني أقبل كل ما هو فرنسي مهما كان صغيرا » ٠ اما أن تظل سياستها وليدة المصلحة العائلية الانعزالية فحسب ٠٠ فهذا ما لا يرضاه لها التاريخ ، ولا المواطنون اللبنانيون الذين يقدرون قيمتها ومكانتها ٠

الأتراك في لبنان

السّلجوقيّون والمماليك والعثمانيّون

بقي السلجوقيون والعثمانيون الاتراك في بلادنا أكثر من ألف عام ٠

واللبنانيون الذين يجري في عروقهم الدم التركي السلجوقي أو الجركسي والكردي هم أكثر بكثير من أولئك الذين يزعمون أنهم من سلالة الفينيقيين المنقرضة منذ ألفين وثلاثمائة سنة أو تزيد ٠

ان للاتراك في بلادنا تاريخا طويلا وصفحات حافلة ، فيها حسنات وفيها سيئات ٠ وهي مصدر فخر لهم ، وليس لنا ، فلقد ورثوا تراث الدولة العباسية بعد تفسخها وزوالها وقيام عدة دويلات عربية وفارسية وسلجوقية مكانها ٠ فكان عليهم أن يحموا ميراث الاسلام طوال عشرة قرون ، ويردوا غارات بيزنطية والغزوات الصليبية عن بلاد الشام بما فيها لبنان وعن مصر والعراق ٠ وفي اليوم الذي انسحب فيه الاتراك من ديار الشام ودخل الانكليز والفرنسيون ، بدأت مأساة فلسطين التي انتهت بتسليمها لليهود ، ومأساة الانتداب الفرنسي التي انتهت ، والحمد لله ، باستقلال البلدين : سوريا ولبنان ٠

وحين دخل اللورد اللنبي بيت المقدس منتصرا على الاتراك قرعت أجراس الكنائس فيه ايذانا بانتصار حملة صليبية جديدة ٠ ولم يخجل ذلك القائد أن يقول حين دخل الكنيسة : « الان انتهت الحروب الصليبية » ٠ كما لم يخجل زميله « غورو » أن يقف على قبر صلاح الدين الايوبي حين دخل دمشق فاتحا بعد موقعة ميسلون فيقول لذلك البطل الخالد : « صلاح الدين ٠٠ نحن هنا ٠٠ هذه حملة صليبية جديدة » ٠

«Saladin nous sommes là, voila une nouvelle croisade.»

وعلى طول الشاطئ اللبناني الافيح يرقد ميراث ابطال الاتراك السلجوقيين وانتصاراتهم في الحروب الصليبية أيام الملك العادل نور الدين زنكي وأولاده واخوته ، وأيام صلاح الدين وأنسبائه ٠

بل ما لنا نذهب بعيدا ، وأمامنا نفر كبير ممن أداروا ، ويديرون في هذا العصر سياسة البلاد العربية ، وجلهم من الاتراك أو الشعوب المتفرعة عنهم كالجركس والالبان والاكراد ٠

ان الكثيرين من اللبنانيين كانوا يؤيدون الوالي التركي أحمد باشا الجزار ٠ وكان الشهابيون ، امراء لبنان ، تابعين له ، يعين منهم من يشاء ويعزل من يشاء ٠ وقد كتب مرة للامير بشير ، وكان حانقا عليه ، : « اذا خالف العبد مولاه استبدله بسواه » ٠ فاذا كان ميثاق سنة ١٩٤٣ قد آخى بين أبناء البلاد فلا معنى اذا لان نملأ كتب التاريخ بشتم الجزار وتشويه أعماله ، وتمجيد الامير بشير وتعظيم أفعاله ٠

والتاريخ يحدثنا أيضا بأن محمدا الفاتح حين هجم على الاستانة كان في جيشه ثلاثون ألف جندي سلافي مسيحي ٠ وأن أهل جنوى ساعدوه على فتح القسطنطينية ٠ وأن البابا نفسه عرض على الروم مساعدته اذا هم انضموا الى الكنيسة الكاثوليكية فرفضوا وقال بطريركهم جملته المأثورة : « عمامة محمد الفاتح ولا قلنسوة البابا » ٠

دخل العثمانيون سوريا ولبنان بعد أن احتكوا باوروبا المسيحية أكثر من قرنين سلما وحربا ٠ وطبقوا في بلادنا سياسة معتدلة غير طائفية ٠ ولو كانت سياستهم طائفية سنية لوجدنا بعض العائلات المسيحية تعتنق الاسلام حرصا على مصالحها ، ولكن الامر بالعكس فقد تنصرت بعض الاسر التي هي من أصل عربي أو مملوكي أو سلجوقي ، وفي طليعتها اسرة آل شهاب ٠ ويفسر المؤرخون تنصر بعض هذه الاسر ، ولا سيما السلجوقية التي لجأت الى أعالي الجبال بأنها فعلت ذلك خوفا من مصادرة أملاكها والانتقام منها ٠ اذ أن الاتراك كانوا قساة على بعضهم ، حتى أن بعض ملوكهم وامرائهم كانوا يقتلون اخوتهم وأنسباءهم لئلا يزاحمونهم على الملك أو يتآمروا عليهم ٠

ان للاتراك في هذه البلاد ، كما ذكرنا ، تاريخا طويلا بعضه صفحات مجيدة ، وبعضه صفحات مؤلمة ٠ فخليق بنا أن نكون منصفين حين نذكر تلك

الفترة من الزمن فلا نستغلها طائفيا كما فعل بعض المؤرخين اللبنانيين الذين وضعوا كتب التاريخ للناشئة فحاولوا أن يثبتوا بأن عهد الاتراك ، في لبنان ، هو عهد اسلامي ، كعهد العرب ، مليء بالمآسي ٠ وان الطائفية ذرت قرنها فيه وان الخلفاء كانوا طائفيين في ادارتهم وسياستهم ، يضطهدون العنصر المسيحي ويقربون العنصر الاسلامي ٠

هذه جنايات على التاريخ من الخير لنا ومن المصلحة ألا نختلقها خدمة لمآرب سياسية خاصة تكمن وراءها ٠

ان الذين خلقوا الطائفية وغذوها هم الذين أثاروا الفتنة في البلاد عام ١٨٦٠ والذين جعلوا أنظمة البلاد وقوانينها ودستورها وحياتها السياسية والادارية والعلمية والاقتصادية مبنية على الطائفية ٠٠٠ فلا نظلم التاريخ ولا نظلم أنفسنا بتجاهل الحقائق وابتكار الاساطير ٠

فتـْـنَة ١٨٦٠

لن نتعرض لحوادث هذه الفتنة المشؤومة ، التي لا نزال نعاني نتائجها حتى اليوم ، من الوجهة التاريخية ٠٠ فهي فتنة مفتعلة ينبغي أن تزول ذكراها من تاريخنا الحديث ٠ فتنة أحدثتها فرنسا وانكلترا المتنافستان على استعمار الشرق ، فكان أجدادنا وقودا لها ، وآباؤنا ونحن ، ضحايا العقلية التي خلفتها ٠

كانت فرنسا تود أن تجعل لبنان مركز استعمار تنطلق منه جيوشها لنفتح والتوسع في الشرق ، وينتشر منه نفوذها الثقافي والاقتصادي في البلاد العربية ٠٠ وكانت السياسة البريطانية تستهدف السيطرة على الشرق العربي تأمينا لطريق الهند ٠٠ فلم تجد الدولتان المتنافستان الا الطائفية في لبنان تستخدمانها في سبيل تأمين هذه المصالح ، فلجأتا اليها وأضرمتا نار الفتنة بين أبناء الوطن الواحد ٠ فاحتضنت فرنسا الموارنة ، وانكلترا الدروز ، وسلحت كل من الدولتين أتباعها بالمال والعتاد فكانت المذابح بين أبناء الوطن الواحد الذين عاشوا منذ الفتح العربي في سلام ووئام ، ولم تتنكر فئة منهم للاخرى وتتخذ الدين وسيلة لذلك ٠ والواقع ان السنيين في الجبل والساحل لم يشتركوا اشتراكا فعليا في هذه الفتنة ٠ فحين كادت تمتد من الجبل وتشمل مدن الساحل ، تداركها العقلاء من الطائفتين ، فحدثت في بعض أحياء بيروت حوادث فردية مردها الطيش وحمق بعض المتهوسين ٠٠

لقد انتهت تلك الفتنة ، وكنا نود أن نتناساها لولا أن بعض الطوائف في لبنان تبني عليها تاريخنا الحديث في المدارس والبيوت والمؤسسات ، فتتحدث عنها وكأنها حدثت بالامس القريب ، وتجعل منها قميص عثمان لاثارة النعرات الطائفية بين المسلمين والمسيحيين ٠

حدثتني طالبة مسلمة تدرس في احدى مدارس الراهبات أن دروس

التاريخ والادب واللغة في تلك المدرسة تكرس لفتنة ١٨٦٠ ، وكيف ذبح المسلمون فيها النصارى ، وكيف يجب أن لا يأمن النصارى المسلمين بعد تلك الحادثة مهما تطور الزمن ٠ وأن الراهبات المدرسات كرسن أنفسهن لخدمة العذراء والانسانية ، كما كرسن أنفسهن ونذرنها لخدمة التعصب الطائفي عن طريق فتنة ١٨٦٠ واثارتها في كل قلب وفكر ٠

لن يكون في لبنان استقرار ولا اطمئنان ، ولا تقارب وتفاهم ، ما دامت عقليتنا المتحجرة رغم ثقافتها واشعاعها منبثقة عن حادثة ١٨٦٠ ، وأن دير القمر هي كفردن ، وأن أحفاد المجاهدين فيها ضحايا يجب أن يكافأوا بوظائف الدولة تخليدا لفداء أجدادهم ٠

لقد كان « ديوجين » يحمل قنديله في النهار ليبحث عن رجل ، ونحن نحمل قنديلنا الان لنبحث عن انسان من دير القمر مثلا لم يوظف في الدولة لان أجداده من ضحايا ١٨٦٠ !! ٠٠

الافرنسيّون في لبنان

حين دخل الفرنسيون هذه البلاد واحتلوا سوريا ، وقف الجنرال غورو عند ضريح صلاح الدين الايوبي في دمشق وقال : « يا صلاح الدين نحن هنا ، هذه حملة صليبية جديدة » ·

وحين كتب كاترو مذكراته قال : « ان كل لبناني عن عقيدة ، أعني العنصر المسيحي ، يشعر بأنه يجب أن يتضامن مع فرنسا لمواجهة خطر الذوبان · بينما يعلن المسلمون الانفصاليون أن لبنان يصبح وطنا لهم عندما يمكن ادخاله في متحد عربي » ·

واجتمع مرة السيد جيناردي مستشار الاوقاف الاسلامية في عهد الانتداب الى نفر من مفكري الاسلام ورجال الدين في منزل سماحة المفتي السابق المرحوم الشيخ مصطفى نجا · وكان النفور قد بلغ أشده بين المسلمين والفرنسيين نتيجة للسياسة الحمقاء التي سلكها الانتداب وأساء فيها الى فرنسا نفسها في العالم الاسلامي والعربي · قال ، بعد مناقشة حادة كانت تدور حول حقوق الطائفة الاسلامية وتصرفات الانتداب ، اذا لم نوفق نحن اليوم للتفاهم فيما بيننا فان أبناءنا وأحفادنا سيوفقون الى ذلك · فقال له المرحوم العلامة الشيخ مصطفى الغلاييني جملته المأثورة : وهل تعتقد أنكم باقون هنا حتى يأتي أولادكم وأحفادكم ؟ ! تأكد يا سيد جيناردي انه اذا لم يسعدنا الحظ في اخراجكم من بلادنا ، فسيفعل ذلك ، ولا شك ، أبناؤنا من بعدنا ·

بهذه العقلية ، عقلية الحروب الصليبية ، عقلية الاستعمار الدائم لاجيال وأجيال ، دخل الفرنسيون لبنان ، وبنوا سياستهم فيه على هذا الاساس · فانتزعوا الوظائف الكبرى من السنيين وأعطوها للموارنة ، وأيقظوا النعرات

الطائفية ، فحاولوا أن يقيموا وطنا قوميا مسيحيا على تاريخ موهوم وقومية مختلقة ·

لقد كان المسلمون مخلصين في نزعتهم الاستقلالية وميلهم الى الحرية ، فقاوموا سياسة « التتريك » التي حاول العثمانيون فرضها على البلاد العربية ليطمسوا معالم اللغة والقومية · قاوموا سياسة جمال باشا وأتباعه ، وعلق خيرة شبابهم على أعواد المشانق ، واتهم بعضهم بأنهم يمهدون السبيل لفرنسا، ويتفاوضون معها سرا ···

وبالرغم من ذلك كله لم يأمن الفرنسيون جانب المسلمين ، ولم يطمئنوا اليهم لانهم دعاة الوحدة والاستقلال ، صريحين في سياستهم الداخلية والخارجية ·

ان اللبنانيين الذين استقبلوا الجنرال غورو وجيشه الفاتح ، هم الذين صوروا له خطر الدولة السورية الفتية ودفعوه للقضاء عليها · ولقد جنت فرنسا من جراء تلك السياسة العسكرية الحمقاء خسائر مادية ومعنوية في سوريا خاصة والشرق عامة · واضطرت الى قمع ثورات وثورات لم تنقطع طوال ربع قرن ، ومع ذلك لم يتعظ رجال فرنسا القصيري النظر ، ولم يخطوا خطوة واحدة نحو التفاهم مع العناصر الاسلامية في سوريا ولبنان ، وهي التي تشكل أكثرية السكان · فحين أنشأوا دائرة المراقبة أثناء الحرب العالمية الثانية لم يعينوا فيها مسلما واحدا ، بل ملأوها بمئات الموظفين من المسيحيين واليهود · لقد انتهى عهد الانتداب الفرنسي على « أهون سبب » في لبنان ، ولكنه خلف لنا أوضاعا داخلية في الوظائف والدوائر ، وسياسة عامة في التوجيه العام لا تختلف قليلا أو كثيرا عن سياسة الانتداب نفسه ·

فشغف البعض « بالأم الحنون » لا يزال يملأ القلوب ويفعم الصدور ·· ونحن المسلمون في لبنان ، بعد جلاء فرنسا ، وانتهاء الانتداب مستعدون لمشاطرة أولئك البعض غرامهم الجامح ، والدخول معهم ميادين « الحب » غير هيابين ولا وجلين اذا كان هناك ثمة فائدة من هذا الغرام ·

اننا نود أن ننشىء علاقات صداقة وود مع فرنسا كما ننشىء ذلك مع أية دولة أجنبية اخرى · أما أن تكون هناك أفضلية أو امتياز ، فهذا ما نحاربه ولا نرضى به ، لاننا نعتبر جميع تلك الدول سواء ، في أنانيتها وطمعها ورغبتها في استعمارنا واستغلال موارد بلادنا ·

الحِزبُ السُّوري القَومي[1]

الليل ساج ، والسكون يخيم على تلك الضاحية الرملية من ضواحي بيروت • ونحن في الهزيع الاخير من ليل الثامن من تموز ١٩٤٩ • ثلة من الجنود اللبنانيين توجه بنادقها الى صدر رجل في العقد الرابع من عمره ، أسمر اللون ، ملتف الجسم ، في نظراته عمق الفيلسوف ، وفي نبراته ايمان الرسل بدعوتهم • انه يستقبل الموت برباطة جأش ، ويلفظ أنفاسه الاخيرة قائلا لجلاده وهو يربط عينيه عملا بقانون الاعدام : « أنا أحترم القانون •• شكرا » •

وامتثل الجنود الى أمر ضابطهم عندما دوى صوته يؤذن باطلاق النار ••• وانطلقت عدة رصاصات من فوهات البنادق فاخترقت ذلك الصدر العامر بالعقيدة ونفذت الى ذلك القلب الكبير فهدأ •• وهدأت معه ثورة كادت تندلع في لبنان فتقلب أوضاعه الداخلية والخارجية •

واستيقظ الناس اصبوحة التاسع من تموز على أصوات باعة الصحف ينادون : اعدام انطون سعادة زعيم الحزب السوري القومي • وقرأ الناس الخبر فكانوا بين مصدق ومكذب • ذلك ان انطون سعادة أول زعيم حزب يعدم في سبيل عقيدته منذ عهد الاتراك • منذ عهد شهداء ٦ أيار •• لقد اعدم الفرنسيون كثيرا من الوطنيين المناضلين في سبيل استقلال سوريا ولبنان وحريتهما ، ولكن أولئك الشهداء لم يكونوا أركان حزب ينتظم الالوف من الشباب ويصهرهم في بوتقته ، بل كانوا أفرادا مجاهدين جمعت بينهم عقيدة الاستقلال والتحرر فناضلوا في سبيلها حتى استشهدوا •

أسس أنطون سعادة الحزب القومي السوري في الجامعة الاميركية عام ١٩٣٤ ، ولم ينكشف أمره الا سنة ١٩٣٦ حين بلغ أعضاؤه ألفا •• وكان

اكتشافه حادثا خطيرا في سياسة لبنان الداخلية وتوجيهه العقائدي •

ولاقت دعوة الحزب في أول نشأته رواجا كبيرا بين الشباب ، وقدر لها النجاح • ولا نعتقد أن مصدر ذلك قوة مبادىء الحزب ، وفهم الاتباع لها فحسب • فلقد انتشر الحزب بين الروم تأييدا لانطون سعادة لانه رومي المذهب رغم مناداته باللاطائفية • وانتشر بين الدروز لانهم عشاق النظام والقوة وطلاب الوحدة السورية • ولقد التبس على أكثرهم يومذاك أمر الوحدة السورية والقومية السورية فخرج الكثيرون منهم على الحزب ، بعد أن كانوا من أشد أتباعه تعصبا ، حين أدركوا نظرته الى العروبة وقسوته في مناوأتها والحط من شأنها كدعوة قومية تنتظم البلاد العربية وتوحد بينها • ولعل السنيين كانوا أضعف العناصر في هذا الحزب • فلقد وقفوا منه موقف الحذر والحياد حين أدركوا موقفه من القومية العربية وهم دعاتها في لبنان • أما الموارنة فلم يتجاوز عدد الاعضاء منهم أصابع اليد ، واذا بالغنا في القول قلنا أصابع اليدين •• ولا نثق أن واحدا منهم اعتنق مبدأ الحزب وآمن به الى يومنا هذا • ذلك لان الموارنة حرب على كل وحدة ، سواء أكانت عربية أم سورية ، وخصم لكل قومية سواء أكانت عربية أم سورية • أضف الى ذلك سياسة المصالح التي كانت تشدهم الى الدولة المنتدبة •• عدوة الحزب اللدود •

نشأ الحزب القومي كما ذكرنا في الجامعة الاميركية ، واستفاد الى حد كبير من حرية الفكر التي كان يتحلى بها الجو الجامعي في ذلك الحين • فانضم الكثيرون من الطلبة والاساتذة الى الحزب ، وبشروا بمبادئه ، وكانوا أعضاء عاملين فيه • بل انك لا تجد بين الرعيل الاول الذي قامت على أكتافه دعوة الحزب من غير الجامعة عضوا واحدا الا ما ندر • فهم اما طلاب أو أساتذة أو خريجون • ولم يتعرض حزب في لبنان الى ما تعرض اليه الحزب السوري القومي من اضطهاد •• فلقد سجن زعيمه وقادته مرارا ، وتشرد الكثيرون منهم وطردوا من وظائفهم ومدارسهم • ولكنه ظل يعمل ويناضل مستمدا قوته من شخصية زعيمه وصلابة عقيدته • وحين انتقل الزعيم الى المهجر ينشر دعوته التي لاقت رواجا كبيرا بين المهاجرين ، كان حواريوه الخلص يديرون دفة الحزب في لبنان وسورية ، ولكنهم سرعان ما سايروا سياسة العهد الاستقلالي الجديدة فتخلوا عن عقيدتهم • وعاد انطون سعادة الى لبنان ، فجدد الحزب ، وفصل منه أخلص أتباعه الذين سمحوا لانفسهم بتحوير عقائده ، وأعاد تنظيم وحداته • فعاد نشاط الحزب يهدد بقية الاحزاب والمنظمات الطائفية اللبنانية • فتضافرت عليه ، واستطاعت احداها أن تقنع الحكومة بخطورة دعوته •

فأعلنت الحكومة حربا عنيفة عليه انتهت بحله وتشريد أعضائه واعدام زعيمه · وانتقل مركز الحزب الى سوريا ، وتولى الاشراف على ادارته رجل من أتباع سعادة الاول لا يقل عنه صلابة في العقيدة ، وحبا في المغامرة · هو جورج عبد المسيح السرياني الاصل الذي سيسجل له التاريخ انه آخر سرياني قاوم وجه العروبة في لبنان وفشل ·

لقد ارتكب الحزب القومي أخطاء كثيرة لا تغتفر ، كان مصدرها عناد زعيمه ، وايمانه بدكتاتوريته ·· وكانت أخطر تلك الاخطاء التي أودت بحياته ، تصديقه ، عن حسن نية ، لحسني الزعيم ، القائد السوري الذي سلمه تسليم اليد الى ساحة الاعدام ، ثم ثورته الفورية التي قام بها دون أي استعداد ، فكان نصيبها الفشل بين ليلة وضحاها ·· ومن أخطاء الحزب المذهبية دعوته الى العصبية السورية التي تنفرنا من جيراننا واخواننا العرب ، وتجعلنا ننظر اليهم ، على ضوء مبادىء سعاده ، كما ننظر الى الصيني والايطالي والالماني وغيرهم من الشعوب التي لا تشدنا اليها رابطة نسب أو لغة أو تاريخ مشترك أو مصلحة ·

وعقيدة القوميين السوريين هي ، في الواقع ، اعتراف ضمني بأن البلاد ليست لسكانها العرب الفاتحين الذين هم فيها الآن · بل هي لمواطنين قدماء من شتى الجنسيات بادوا وانقرضوا ·· ان هذه النظرية تصح لو ان لتلك الشعوب أي أثر أو ذكر بعد الفتح العربي ، أو لو أن العرب دخلوا هذه البلاد منذ مائة سنة ، فهم بالنسبة لسكانها كالاتراك أو الفرنسيين أو الانكليز الذين استعمروها مدة من الزمن ثم قاومهم السكان وأجلوهم عنها · أما وان سكان البلاد الحاليين ، من الفتح العربي ، أي من ألف وأربعمائة سنة ، عرب ، فلا معنى لدعوة عصبية تقوم على فينيقية وآرامية وكنعانية وسريانية انقرضت شعوبها أو انصهرت على الاقل ، وزال كل أثر للغاتها وقومياتها حتى ولآثارها نفسها ··

وأما أن تقوم دعوة الحزب على احترام أمجاد هذه الامم التي عاشت في هذه البلاد وساهمت في بناء الحضارة العالمية ، فهذا شيء نقر الحزب عليه ونقدره · واذا كان للحزب أخطاؤه السياسية والمذهبية التي أودت بحياة زعيمه ، وأضعفت مركزه في لبنان ، وجعلت الكثيرين ينفضون من حوله ، فللقضاء رأيه وحجته في اعدامه · فالواقع ان الحزب كان يعمل على أساس لا طائفي · ولقد اتيح لعقيدته أن تتغلغل في مختلف الاوساط حتى بدأت

تضعضع الفكرة اللبنانية القائمة على أساس اعتبار لبنان وطنا مسيحيا قوميا تقوم دولته على أساس ديني ، وعلى بقية الطوائف أن ترحل عنه اذا لم ترقها هذه السياسة · فللحزب فضل لا ينكر في محاربة هذه الفكرة ، كما ان له فضلا لا ينكر في ضبط « فرملة » العروبيين الانتهازيين ومحاربة المستثمرين منهم ·

ولو اتيح لهذا الحزب أن يعدل في عقائده حسب الواقع الذي تعامى عنه ، وأن يقلل من كبريائه وعنجهيته التي عصفت به ·· لكان اليوم يملك ناصية البلاد ، ويوجه دفة الادارة والسياسية فيها ·

هذا موظف نموذجي !!

كان ذلك الموظف يسكن حيا اسلاميا ، وكان بجواره مسجد يذكر فيه اسم الله ويدعو فيه المؤذن خمس مرات في اليوم الى الصلاة والعبادة والخير ·

« حي على الصلاة ، حي على الفلاح » ولكن هذه الدعوة النبيلة ، وهذا الكلام الجميل لم يعجبا ذلك الانسان ، ولم يكن بوسعه نقل المسجد من جواره فارتحل عن الحي ·

وسأله أحدهم : غريب أمرك يا فلان ·· لقد كان آباؤك وأجدادك يطربون لهذا الاذان فما الداعي للنفور منه الآن !! قال : لهم رأيهم ، أما أنا فيزعجني هذا الاذان · قد تتهمني بالتعصب ·· ولك رأيك ، ولكن هذه هي الحقيقة ··

كان صاحبنا من كبار الموظفين في الدولة ، وكان في دائرته موظفون كثيرون من مختلف الطوائف · ولكنه كان يطبق عليهم نظرية الوطن القومي بصرامة ·· لم يكن يكره المسلمين في لبنان فحسب ، بل في كل بلد له بلبنان صلة · هو يكره السوري لانه مسلم ويكره المصري لانه مسلم ، ويكره العراقي لانه مسلم ، ويفضل أن يعيش في عزلة منكمشا على نفسه · انه مثال الموظف النموذجي الذي يطبق سياسة « الغرفة السوداء » · ضيق الخيال ، محدود الذكاء ، يحفظ القوانين ولا يحسن التصرف بها · يعقد المسائل أكثر مما يسهلها ، ويخلق حولها جوا من الغموض والابهام · انه حقود حسود ، لا يترك فرصة تمر من غير أن ينتقم من الذين يخالفونه في الرأي ، ولو بعد سنين ، مستخدما في ذلك نفوذه ووظيفته · شغل عدة مراكز ادارية ، ونقل الى عدة دوائر ، وأثرى وأصبح من أرباب النعم بفضل عرق جبينه طبعا !! ولم يسأله أحد في يوم من الايام من أين لك هذا ؟؟ ·

كان في دائرته موظف من طائفته يحضر الى مكتبه متى شاء ويتغيب متى شاء ، لا حساب ولا عتاب ، وكان الى جانبه موظف مسلم يرى بأم عينه ، فيسكت خشية الانتقام منه · وحدث مرة أن طلب الموظف المسلم فرصة نظرا لضعفه ومرضه فرفض حضرته منحه يوما واحدا ، وانتهره قائلا : « ان أشغال الدائرة تتراكم يوما بعد يوم ، فكيف تريد أن تتغيب ولمن تتركها » ؟؟

ولكن فلانا ، يا سيدي ، يتغيب باستمرار · انه لا يحضر الا في المناسبات ·

ـ عليك بنفسك ، ولا تتدخل فيما لا يعنيك !!

لقد كان صاحبنا يجمع المجد من أطرافه ··

فهو ابن أسرة معروفة · وهو تلميذ معاهد الرهبان وربيب الغرفة السوداء ، يحضر اجتماعاتها ، ويطبق سياستها وينفذ خططها المرسومة بحكمة واخلاص ·

أضف الى هذه المزايا أنه صنيعة الفرنسيين ، فهم الذين خلقوه وأفسحوا أمامه مجال الترقي والتقدم ·· فكان يترقى بقدر ما يظهر من تعصب يثبت كفاءته في هذا الميدان ··

كم هم الموظفون النموذجيون الذين ورثهم عهد الاستقلال أمثال هذا المخلوق ؟ !

المعاهد الأجنبية

سألتني احدى الآنسات في باريس :

– هل عندكم شعر وشعراء ؟

عجبت كثيرا من هذا السؤال ، تلقيه علي آنسة جامعية ·· وأجبت :

ألم تدرسي شيئا عن العرب وآدابهم في العصور القديمة والحديثة يا آنسة ؟

– أبدا ·· لا شيء ··

–ولكنك لو سألتي آنسة من أوانسنا ، أو شابا من شبابنا الذين تثقفوا ثقافة ثانوية ، ولا أقول جامعية ، عن أي شاعر أو أديب فرنسي ، لاجابك بتوسع ، ولانشد لك شيئا من شعره ، وذكر لك مؤلفاته ، وناقشك في خصائص أدبه ، ولما اختلفت معلوماتك عن معلوماته في شيء ··

– غريب ·· اذا أنتم شعب مثقف ··

– نعم يا آنسة ·· مثقف ثقافة أجنبية ·· قلت ذلك بابتسامة ساخرة شاركتني فيها تلك الآنسة التي تجهل عن العرب وبلادهم وآدابهم كل شيء ·

ودخل أحد أساتذة الادب الفرنسي المنتدبين للتدريس في معهد ثانوي من معاهد لبنان الوطنية ، على طلاب صف البكالوريا ، فابتسم عند أول مقابلة ·· وأخذ يتفرس في وجوههم وملابسهم ويزداد ابتساما ·· وهو صامت لا ينطق ولا يبين ·· فقال أحدهم : يبدو أنك مسرور برؤيتنا ، والاجتماع بنا ، والتعرف الينا يا استاذ ، فنحن نشكرك على هذه العاطفة ·· فأجاب ، وهو يهز برأسه : « أقول لكم بصراحة ، انني ·· أضحك من نفسي ·· هذه أول مرة أخرج فيها من فرنسا بعد أن نلت شهادة الليسانس في الآداب ، وحين

انتدبت للتدريس في لبنان كنت أحمل في نفسي صورة خيالية شعرية عن هذه البلاد التي عرفت انها جزء من البلاد العربية · حسبت نفسي سأحضر الى صحراء رملية جميلة يظلل النخيل واحاتها ·· وانني سأجد الطلاب جالسين على الحصر بعباآتهم التقليدية ·· لقد أوصتني والدتي كثيرا بأن أحترس وأكون على حذر حتى لا أذهب ضحية العلم ·· فأنا ذاهب لتمدين شعب بدوي متأخر ·· لا أدري متى يحلو له أن ينقلب علي فيجعلني شهيدا من شهداء التعليم ··

لقد حملتني والدتي صندوقا من الشوكولا وهي تودعني وتذرف الدمع سخيا ·· وقالت : « احرص يا عزيزي على هذا الصندوق ، فستمكث سنة أو سنتين ، من يدري ، لا تعرف طعما للشوكولا وأنت الذي تعود منذ صغره أن يأكل لوحا أو لوحين منها كل يوم ··

قال ذلك وقهقه ضاحكا وقهقهنا نحن معه ··

ان الاوروبيين ، والاجانب بصورة عامة ، لا يعرفون شيئا عنا ·· أما نحن فنعرف عنهم كل شيء بينما نجهل أنفسنا وبلادنا وتاريخنا ·

سل أي طالب تخرج من معهد أجنبي فرنسي في لبنان عن أصغر نهر في فرنسا ، وعن موقع أي بلد شئت ، وعن الصادرات والواردات وعن القادة والشعراء والادباء وعن تاريخ تلك البلاد وجغرافيتها فانه يجيبك بالتفصيل · وسله عن أقرب بلد عربي اليه ·· سله عن سوريا وعن العراق وعن مصر · بل سله عن لبنان نفسه تجده جاهلا كل الجهل بهذا العالم الذي يعيش فيه ··

وهكذا قل في الطالب الذي ينشأ في المدارس التبشيرية الانكليزية والاميركية والايطالية ·

ان سيطرة أوروبا الثقافية لا تزال تحتل المركز الاول في حياتنا العقلية وثقافتنا الوطنية ، ومناهج تفكيرنا · فكيف تريدون أن تخلق تلك المدارس مواطنين صادقين يتحلون بالنزعة الوطنية الصادقة والاحساس القومي العميق ··

ان الوطنية الصادقة والايمان القومي لا ينبثقان الا من اللغة وآدابها ، والتاريخ والجغرافية والتربية الوطنية · فكلما درس الناشيء لغته كلما أحبها

وآمن بقدرتها على الحياة والخلود ٠ وكلما عرف تاريخ بلاده ازداد تعلقا بها وايمانا بكرامتها ٠٠ لقد دخلت البعثات الاجنبية بلادنا منذ قرن ، وهي تحمل رسالة تبشيرية استعمارية ، فاتخذت العلم ستارا لها ٠٠ وكانت لدينا مدارس وبعثات ايطالية وفرنسية وانكليزية والمانية وروسية وأميركية خلقت هذا التبلبل الفكري والقومي الذي نراه بيننا ، واتخذت تلك العصبيات الطائفية وحنطتها حتى جعلت تفكيرنا ومصالحنا المشتركة ووحدتنا الاجتماعية رهين الدين والنزعات الملية ، وحتى اضطرت المخلصين من أهل البلاد الى انشاء معاهد تقاوم هذا التيار الاجنبي الجارف ، وتقف في وجهه لتحفظ لقسم كبير من أهل البلاد دينهم وعروبتهم وتاريخهم ٠ فكانت هذه المؤسسات نفسها تبشيرية وطنية ، وظلت في نزاع عقائدي وثقافي ، مع المعاهد الاجنبية حتى يومنا هذا ٠ ان المعاهد الاجنبية في لبنان هي اليوم مراكز دعاية استعمارية لدولها ، ومبعث تفرقة وتباغض لسكان البلاد ٠٠ ولقد أدركت خطورتها بعض البلاد العربية منذ أمد قريب فقاومتها بالاساليب الوطنية الفعالة حتى قضت أو كادت تقضي عليها ٠٠ لقد بدأ ظل تلك المعاهد يتقلص عن كل بلد عربي ليتمركز ويتسع ويقوى في لبنان ، حتى يظل هذا البلد ، كما يريده الاجانب لا كما نريده نحن ، أمينا على علاقاته التقليدية مع دول تلك المعاهد التي تسيطر عليه ثقافيا ، وتخلق منه مركز اشعاع للشرق والغرب ٠٠ اشعاع موبوء ٠٠ اشعاع قد يضيء في كل مكان الا في نفوس أبنائه وقلوبهم ورؤوسهم ٠٠

ان المعاهد الاجنبية تفرض نفوذها بشكل مباشر وغير مباشر على الدولة نفسها ٠٠ والبرهان على ذلك ان احدى تلك المؤسسات الكبرى قد فرضت ارادتها في تعيين وزير مفوض للبنان في الخارج ، وحين تم لها ذلك اضطرت احدى المؤسسات المناهضة لها الى فرض وزير مفوض آخر في الخارج عملا بسياسة التوازن والمساواة ٠٠ وكانت الحكومة متسامحة في قبول الفرضين٠ وان سياسة المعارف في لبنان ، ومناهج التعليم لا تزال تحت سيطرة هذه المعاهد بشكل مفضوح ، ولا تزال اللغة العربية مساوية للاجنبية في كل امتحان ومسابقة ، لا ميزة لها ولا أفضلية ٠

ان في استطاعة لبنان اليوم ، وهو في عهد استقلالي حديث ، أن يفرض سلطته على تلك المعاهد ، فيضمن توجيهها وفق سياسة الدولة على الاقل ، ويعمل على صهرها في بوتقة التوجيه الوطني الحديث فيفرض عليها معلمين يختارهم للغة العربية وللتاريخ والجغرافيا والتربية المدنية ليضمن الروح الوطنية في ناشئتها ٠٠ ولكنه لم يفعل ٠٠ وفي ظننا أنه لن يفعل ٠٠ وفي

يقيننا أن هذه المعاهد ستنمو وتتسع وتزداد في هذا العهد ، أكثر مما كانت عليه في عهد الانتداب ٠ فقد كان ذلك الانتداب يشجع لونا واحدا منها ، أما اليوم فتشجع الانتدابات ، وما أكثرها ، جميع الالوان والمذاهب واللغات ، وتفتح الحكومات أبواب البلاد على مصراعيها لكل من يدعي ، خدعة ، أنه يحمل لنا رسالة العلم والفكر والاشعاع ٠٠

ان الواجب القومي يقضي علينا بانشاء جامعة لبنانية ، وأن نلغي كل معهد أجنبي لا يحترم اللغة العربية كل الاحترام ، ولا يحلها المحل الاول في مناهجه ، ولا يدرس آدابها بتوسع ولا يعنى بتاريخ العرب وجغرافية بلادهم ، ولا يرفع اسم محمد وعيسى عاليا كأصحاب رسالة وجدت لخير البشر لا لتفرقتهم ٠ نحن لسنا بحاجة الى تبشير ، فالاديان تسري في دمائنا ٠ ونحن على استعداد لتصدير أكبر عدد من المبشرين ورجال الدين الى الخارج ليحملوا الى الوثنيين والمتأخرين من البشر رسالة الاديان السماوية ٠٠ ان في لبنان من رجال الدين ما يكفي لغزو افريقيا كلها وجعل قبائلها الوثنية وشعوبها البدائية متدينة مؤمنة برسالة عيسى ومحمد ٠

واذا لم يكن لنا بد من التعليم الديني ، فلتكن لنا مدارس وطنية أهلية وحكومية تعلم مبادىء الدينين الاسلامي والمسيحي معا ٠ فيفهم الناشىء اللبناني تلك الحقائق التي جاء بها عيسى ومحمد ، ويؤمن بخيرها ونفعها ، ويتفتح قلبه لتقبل رسالتها الروحية السامية التي تبعده عن كل تعصب ذميم ٠

لا يجب أن نفرح بجلاء الجيوش الاجنبية عن بلادنا ، بل يجب أن نبتهج ونفرح بجلاء المعاهد الاجنبية عن تفكيرنا وأرواحنا ٠ فالجلاء عن الفكر والروح هو الجلاء الحقيقي ٠

الأدب اللبناني[1]

اسطورة « الاشعاع الفكري » في لبنان لا يجهلها أحد ·· انها اسطورة نسجها الفرنسيون وتلاميذهم من أبناء الجزويت يوم حاولوا خلق تراث لبناني مستقل عن الشرق والغرب بالاضافة الى مقومات الوطن التي حاولوا خلقها جغرافيا وتاريخيا وقوميا ففشلوا ·

هذه الاسطورة ، بنينا عليها غرورنا الفكري ومغالاتنا في تقدير تراثنا الادبي · اذ أننا ، ولله الحمد ، خالون من أي تراث علمي يعتد به · أقمنا على أساسها أدبا حاول البعض أن يطبعه بطابع الاقليمية الضيقة ، وهو في الواقع أدب انساني طليق ·

لقد توفر « الاشعاع الادبي » الى حد كبير ، في أدباء المهجر الذين لم يتسمم فكرهم في لبنان في عهد الانتداب ، فكان أدبهم عربيا انسانيا يستمد أصوله من صميم الحياة ، ومن التراث العربي الخالد · فأي أدب لبناني اقليمي ضيق ، نلمس في مؤلفات جبران ونعيمه والريحاني ؟ وأي نفس شعري لبناني اقليمي نحس بدواوين فوزي وشفيق المعلوف وايليا أبو ماضي والشاعر القروي وأديب فرحات وغيرهم ممن نعتز بهم من أدباء المهجر ؟·

ان أدبنا العربي في لبنان لا يزال على عتبة الآداب العالمية ، ومن الخير لنا ألا تسيطر علينا نشوة الغرور فنعتبره مصدر اشعاع للشرق والغرب ·

ان الاقليمية في الادب اللبناني هي كالاقليمية في الادب المصري والعراقي والسوري ، لا تتعدى بعض المواقف الشعرية التي تصور روائح الطبيعة ، وبعض القصص التي تصور طابع الحياة الاجتماعية الخاص الذي يتميز به كل بلد من البلاد العربية · ولكن هذه الاقليمية في الادب محدودة النطاق لا تطغى

على العنصر البارز في الاتجاه الادبي ، والدراسات الفكرية المنبثقة عنه ·

لا مجال للمقارنة اليوم بين صحافتنا والصحافة المصرية الحديثة التي تكتسح العالم العربي من أقصاه الى أقصاه ، بل لا مجال للموازنة بين انتاجنا الفكري المحدود وبين انتاج مصر الذي يفرض نفسه علينا فرضا ، سواء أكنا متعصبين للبنانيتنا واشعاعنا ، أم متساهلين في نزعتنا ومتخلين عن غرورنا · فأحمد أمين وطه حسين والعقاد ومئات غيرهم من الادباء والصحفيين المصريين يفرضون انتاجهم على كل عربي مهما كان دينه ولونه وعصبيته ، لان الادب الصحيح والفكر النير والدراسة العميقة والاسلوب البليغ واللغة الحية عناصر تفرض نفسها على الفكر ، وتحمله على احترامها واجلالها ·

ومع ذلك ·· لا نجد في مصر من يتبجح « بالاشعاع » ويتحدث عنه ، ويفاخر به ، ويدعي أنه مركز الثقل ، ونقطة الارتكاز في الشرق والغرب ·

نحن لا ننكر فضل اللبنانيين الاول ، منذ مائة عام ، في خلق النهضة العربية الحديثة ، ومساهمتهم الفعالة في ميادين الصحافة العربية والفنون الجميلة والطباعة والتأليف والتعريب ·· فهذا مجهود نفتخر به ونعتز ·· ولعل المصريين ، يعترفون اليوم بأنهم يؤدون للبنان بعض ما عليهم نحوه من دين ، وفاء بجميله ، واعترافا بفضله الاول على نهضتهم ·· على أن أولئك اللبنانيين الذين نعتز بهم أمثال اليازجيين والبستانيين والشدياق وزيدان والاسير والحداد وغيرهم من رجال النهضة الفكرية العربية ، لم يفكروا يوما ما بهذا التفكير الاقليمي الضيق الذي يفكر به اليوم بعض أحفادهم في النسب والحسب والادب ، بل كانوا يعتزون بخدمتهم للتراث العربي وللغة الضاد الخالدة ·

ان الادب اللبناني الحديث لن يتاح له الانتشار والخلود الا اذا تجرد من هذه النزعات الضيقة التي ولدتها فيه الدعاوات الاجنبية ، والا اذا تحرر من هذا الغرور الذي يكاد يقضي عليه ، وأصبح انتاجا عربيا يستمد عناصره الاولى من التراث العربي الخالد ، ويتلقح بالآداب العالمية الحديثة ·

ان أدبنا اللبناني لن يقوى على مسايرة ركب الآداب العالمية الحديثة في الشرق والغرب الا اذا عمل اللبنانيون من جديد ، باخلاص ، لتعزيز اللغة العربية في معاهدهم وبيوتهم ، ونشرها في البلاد العربية والاسلامية ، والا اذا هم اعترفوا بأن في التراث العربي الخالد معينا لا ينضب ، عليهم أن

الطابور الخامس

في الآستانة جماعة من المسلمين الاتراك أصلهم من اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ظاهرا في سلانيك ٠ وبقوا متمسكين « بيهوديتهم » الهدامة ٠ انهم يعرفون « بالدونمة » ويعتزون كثيرا بأتاتورك ، ويعتقدون اعتقادا راسخا أنه منهم ٠ وحجتهم في ذلك أن « أتاتورك » سفر عن نواياه نحو الاسلام حين تولى الحكم ، ورسخت أقدامه فيه ، فقد ألغى التعليم الديني ، وأقفل عددا كبيرا من المساجد ، وهدم أحدها في « هيبلي آغا » لان العازفين على الموسيقى أوقفوا العزف احتراما للآذان ٠

هؤلاء « الدونمة » يسميهم الاتراك المسلمون « الطابور الخامس » انهم يتمسكون بشعائر الدين ظاهرا في سبيل مصالحهم الذاتية ، ولكنهم لا يتوانون عن الدس والتهديم كلما سنحت لهم الفرصة ٠

وأعرف في بيروت خادما مسلما ، غريبا عنها ، كان يتردد على أحد كبار التجار المسلمين فيخدمه ، ويعنى بمطالبه ، ويهتم بشؤون بيته من شراء الحاجيات اليومية ، الى مرافقة الاطفال في نزهتهم ، الى نقل الغداء من البيت الى المحل ٠٠ الخ ٠ ما هنالك من أعمال ٠٠ وكان التاجر وعائلته يحسنون اليه ، ويؤمنون طعامه وحاجاته الضرورية ، ويجزلون له العطاء ٠٠ وكان له ولدان توصل بفضل احسان تلك العائلة الاسلامية الى ادخالهما احدى الارساليات الاجنبية ليتما تحصيلهما ٠٠ وقد ساعده ذلك التاجر كما ساعدته الارسالية نفسها على تعليم ولديه حتى أصبح أحدهما طبيبا والثاني صيدليا ٠

وكان حصاد ذلك العمل الطيب الذي قام به التاجر المسلم وأسرته ، أن الخادم وولديه جحدوا جميلهم وأنكروا فضلهم ٠٠ ولو أن الامر وقف عند هذا

يردوه ويستقوا منه ، وأن في الآداب الاجنبية الحديثة كنوزا نفيسة حقيقة بأن تكون غذاء فكريا لنهضتنا الحديثة ٠

ان المفكرين اللبنانيين الذين يعتقدون بأنهم يخدمون وطنهم ، ويخلدون تراثهم حين يكتبون وينشرون بالفرنسية مخطئون ، لانهم لن يجدوا في الغرب ولا في الشرق من يقرأهم ، فتذهب جهودهم الفكرية مع الريح ، وهم لو درسوا العربية وتعمقوا بها وكتبوا فيها لكان انتاجهم جديرا بالدرس والتقدير من كل عربي « ولرفعوا بذلك اسم لبنان في ميدان الادب ، ولاصبحت «اسطورة الاشعاع» حقيقة راهنة يعتز بها كل لبناني » ٠

بوسع لبنان أن يجاري الاقطار العربية التي سبقته في فن القصة والسينما والتمثيل والموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة التي تدخل تحت نطاق الادب ، وأن تزاحم بيروت القاهرة في الطباعة والنشر والصحافة ، اذا نحن آمنا من جديد بلغتنا العربية التي كنا منذ مائة عام في طليعة من يعمل على نشرها ويعتز بها ، فصرنا بعد مائة عام في طليعة من يعمل على تهديمها واضعافها في المدارس والمؤسسات والمعاهد الرسمية ٠

ان أدبنا سينكمش على نفسه اذا ظلت تسوده هذه الافكار الهدامة : من دعوة الى العامية ، وتعزيز للغات الاجنبية ومساواتها بالعربية ٠ وسيتناسى العالم العربي « اسطورة الاشعاع » التي آمن بها منذ قرن لانها كانت حقيقة ، وأنكرها اليوم بعد قرن لانها أصبحت خرافة ٠٠٠

انحد لكان طبيعيا في الحياة المليئة بالنماذج البشرية من هذا النوع ٠٠ ولكن تبين أن تلك الارسالية لم تساعد ولديه على اتمام تحصيلهما العالي ، وتتساهل معهما الا لغاية في نفسها ٠٠ فلقد أصبح الولدان بعد تخرجهما آلة مطواعة بيد تلك الارسالية ، تحارب بهما الاسلام والمسلمين في لبنان ٠٠ فلم ينتسبا الى جمعية أو مؤسسة الا تجسسا عليها وكانا عاملين من عوامل تهديمها ٠ ولم يجلسا في مجتمع أو مقهى الا وكان حديثهما يدور عن نقد المسلمين والحط من شأنهم ٠

لقد كانا طابورا خامسا على المسلمين كجماعة « دونمة » ٠٠ وككل جماعة هدامة ابتلي بها الاسلام منذ تعددت فيه الفرق والمذاهب ٠

رحم الله المسلمين في هذا البلد ٠٠ انهم يكادون يؤكلون كالخرشوف « الارضي شوكي » ورقة ورقة دون أن يدركوا الاخطار المحيطة بهم ٠٠ انهم طيبو القلب الى درجة السذاجة وسريعو التصديق لكل ما يقال لهم أو يعرض عليهم ٠٠ ان أي ممثل مسرحي نصف بارع يستطيع أن يخدعهم ويسيرهم حسب ما يشتهي ٠

فاذا قيل لهم أن السياسي الوطني « زيد » مثلا قد باع جميع أملاكه في سبيل « القضية » لا يخطر ببالهم أن « زيدا » هذا قد يكون باع أملاكه فعلا واستبدلها بأموال ذهبية أو سندات عقارية أو أنه باعها في سبيل تحقيق أهداف شخصية ٠٠ واذا قيل لهم أن « عمرو » المجاهد يلاقي مشقة عسيرة في تأمين قوته ، وأنه يستدين من البقال والجزار والخباز ليعيش وعياله ٠٠ صدقوا وآمنوا ٠٠٠ واذا قيل لهم أن « بكرا » المتمول هو الذي يمد يد المساعدة « لعمرو » الذي افتقر كي يؤمن له قوته بعد أن باع « ما تحته وما فوقه » في سبيل الاسلام والعروبة ٠٠٠ اندفعوا يحيون ذلك المتمول ويباركونه ٠

لقد كان الامير بشير يتظاهر بالاسلام ويعتنق المسيحية ، فيدخل المسجد والكنيسة والخلوة ٠ وكثيرون هم الساسة الذين يقلدون الامير بشير بين المسلمين اليوم ٠ يؤمون المساجد ، ويقيمون الشعائر في المناسبات ولكنهم متنصرون سياسيا ، فهم في الظاهر مسلمون ، ولكنهم في العقيدة والمبدأ متنصرون ٠٠ والتنصر السياسي أخطر شأنا وأكثر تهديما من التنصر المذهبي ٠٠ فليحذر المسلمون في لبنان هذا الطابور الخامس ٠

العلاقات الاقتصادية

زار وفد من أطباء وزارة الصحة منذ سنوات مدينة صيدا ليتفقد الحالة الصحية فيها على أثر حوادث نجمت عن المياه الملوثة وانتشار التيفوئيد ٠

زار الوفد البلدة وتجول في أزقتها القديمة ، وزواريبها التي لا تعرف الشمس ولا النور ، ولا تتمتع بالهواء الطلق النقي ، ولا تبصر وجه السماء ٠ وقدم رئيس الوفد تقريره الى الوزارة بمقدمة قال فيها : « هذه البلدة التي يحدثنا التاريخ أن القادم اليها بحرا كان يشم أريج أزهارها الزكية عن بعد أميال من الشاطيء ، ويتمتع بمنظر مينائها العالمي ، ومئات السفن رائحة غادية فيه ، هذه البلدة ، أصبح ميناؤها اليوم خاليا الا من زوارق الصيادين وقاذورات البلدة ومجاريرها التي تصب فيه ٠

أجل ٠٠ لقد كانت مرافيء صيدا وصور وبيروت وجبيل وطرابلس تغص بالسفن التجارية التي تنقل البضائع عبر البحر الابيض والمحيطين الهندي والاطلنطي والخليج الفارسي والبحر الاحمر ٠٠ لقد كان لبنان يومذاك يسيطر على اقتصاديات البحر الابيض المتوسط ، وكان المرفأ الطبيعي لسوريا والعراق وبلاد فارس ٠ تأتيه البضائع عبر الصحراء لتبحر منه الى أنحاء العالم ٠ ويحمل هو بدوره البضائع الواردة الى تلك البلاد على سفنه وقوافله التجارية البرية ٠

لقد كانت الجزيرة العربية ، بمعناها الواسع ، المدى الحيوي الاقتصادي لهذه البلاد ٠ أما الان فقد تغير الوضع لان رأي بعض اللبنانيين قد تغير ، فهم يفضلون العزلة والانكماش وعودة لبنان الجبل الى وضعه القديم ، على أن يكون له هذا المدى الحيوي الواسع الآفاق ٠ هذه الفئة من اللبنانيين تعتبر الوحدة الاقتصادية بين لبنان والبلاد المجاورة له ضررا على الاقتصاد اللبناني نفسه ٠٠ ونحن نقر هذه الفئة على رأيها اذا استطاعت أن تثبت أن لبنان

بالفعل يتضرر اقتصاديا وسياسيا من هذه الوحدة . نقول ذلك صراحة وجهارا حرصا على بقاء لبنان في هذا الشرق العربي معقلا للديموقراطية وحرية المعتقدات السياسية والدينية والاقتصادية . وأنه من الخير للبلاد العربية ، في هذه الحال ، أن يتمتع لبنان بوضع اقتصادي خاص .

ان اللبنانيين على اختلاف طوائفهم تجار عالميون ، يتقنون فن التجارة بالفطرة ، ويمارسونه بنجاح . ونحن المسلمون السنيون نرى من مصلحتنا ، ومصلحة لبنان ، اتساع آفاق التجارة بيننا وبين البلاد العربية ، كما يرى اخواننا الموارنة ان مصلحة لبنان في اتساع تجارته مع فرنسا خاصة والغرب عامة .

لقد وافق على اتفاقية النقد مع فرنسا جميع النواب الموارنة في اللجنة البرلمانية التي درست المشروع ، كما ذكرت الصحف ، فلماذا تكون الوحدة الاقتصادية مع سوريا خطرا على استقلال لبنان ولا تكون الوحدة المالية مع فرنسا خطرا على هذا الاستقلال ؟

اننا بحاجة الى رجال اقتصاد يفهمون وضع لبنان ومركزه الجغرافي ويشرفون على سياسته .. ليلعب الدور الاول في اقتصاديات الشرق العربي .

ان لبنان حقيق بأن يمثل دور البندقية في البحر الابيض المتوسط ، تلك المقاطعة الايطالية التي سيطرت في يوم من الايام على اقتصاديات المتوسط ، وكانت بارعة في المعاهدات التجارية ، كما كانت بارعة في انشاء الاساطيل .

لقد خسر لبنان مركزه الاقتصادي في هذا الشرق ، وألقى بورقته الخاسرة الاخيرة يوم أعلن القطيعة بينه وبين سوريا .

السياسة الخارجية

يتساءل الواحد منا حين يطلع على موازنة وزارة الخارجية وعدد موظفيها ومفوضياتها وقنصلياتها في الخارج ، هل لنا سياسة خارجية تبرز لبنان فعلا بشكل يرتضيه أبناؤه كافة ؟؟ أم أن أولئك الوزراء المفوضون والمستشارون والقناصل يمثل كل منهم نزعة خاصة ، ولونا من ألوان التقاليد والعقائد المتعددة في لبنان ؟ الواقع أنه ليس لنا سياسة خارجية بالمعنى الذي نفهمه ، وموظفونا هؤلاء اداريون أكثر منهم سياسيون يحاولون ابراز لبنان بوجه جديد .

هذا وزير مفوض تفرضه احدى الجامعات الاجنبية على الدولة فرضا ، فترسله الدولة ليمثلها أمام أعظم دول العالم . وهذا وزير آخر تفرضه جامعة أخرى أجنبية بينها وبين الاولى تنافس في العلم والدين والتبشير والثقافة والتوجيه ، فتقبل به الدولة ، وترسله ليبرز لبنان بطابع خاص في بلاد المهجر .

قال لي أحد مهاجرينا ، وقد جاء لزيارة وطنه وأهله في صيف العام الماضي : « لم نكن نتحدث عن الطائفية ولا الاقليمية قبل تشريف وزيرنا المفوض . كنا ، لبنانيين وسوريين ، نجتمع ونؤسس الاندية المشتركة ، ونتعاون في الجمعيات وأعمال البر والتجارة ، وفي كل ميادين الحياة ومرافقها . جاء وزيرنا المفوض ، فاذا الدنيا تنقلب رأسا على عقب ، واذا به يوقظ النعرات الطائفية بين اللبنانيين فتنقلب مجتمعاتنا الى مناقشات صاخبة حول لبنان الماروني ولبنان العربي ، وحول اتحاده وانفصاله ، وانكماشه وانفلاشه .. واذا بنا نحس تلك النعرات تستيقظ من جديد ، ليس بيننا فحسب ، بل بيننا وبين اخواننا السوريين . لقد كنا ننعم بسعادة واطمئنان ، ووحدة وانسجام ، بين مختلف الطوائف والفئات اللبنانية المهاجرة ، فجئتم بمفوضياتكم

وقنصلياتكم تنقلون الينا أمراضكم الداخلية ، وتفسدون علينا حياتنا كما أفسدتم حياتكم ٠٠ فويل للبنان من هذه السياسة الخارجية ٠٠ » ٠

ان مثل موظفينا في الخارج مثل شبابنا الذين تعلموا في مدارس أجنبية ووطنية متعددة النزعات والميول واللغات ، تسعى كل منها الى غاية خاصة ٠

فالمعاهد الاجنبية تصدر لنا اخصائيين في الحقوق والسياسة والاقتصاد درسوا المناهج اللاتينية أو الانكلو أميركية أو الوطنية العربية وتشبعوا بروحها ٠ ونحن بدورنا نصدر هؤلاء الى الخارج ليغني كل منهم على ليلاه ٠٠ وليؤلفوا أمام العالم جوقات موسيقية كل أنغامها نشاز ٠

ان السياسة العليا التي ترمي الى ابراز لبنان في الخارج والداخل بوجه ماروني مسيحي تحاول اليوم السيطرة على السياسة الخارجية لتصبغ أكثر ممثليها بهذه الصبغة ٠٠ وهذا كتاب وزارة الخارجية المصور عن لبنان وأبرز فصوله ما كتب عن الصليبيين ، وهذا مركز الوزارة هل أسند في يوم ما ، منذ فجر عهد الاستقلال ، الى مسلم أصيل ؟٠٠٠

نحن لا نبالغ اذا قلنا : يجب أن يأتي يوم يمثل فيه المسلم لبنان في الفاتيكان ، والمسيحي في جدة ، حين تكون لهذين المثلين سياسة موحدة ٠ ولا نغالي اذا قلنا : « ان سياستنا الخارجية يجب أن يشرف عليها المسلمون السنيون في لبنان ٠ ودليلنا على ذلك أن الموارنة طائفة من اختصاص لبنان وحده في العالم ٠ فليست هي من أصل فرنسي ولا ايطالي أو جرماني ولا فينيقي منقرض ، وانما هي طائفة نزحت في القرن التاسع من وادي العاص الى لبنان على اثر الاضطهاد الذي لحق بها فاستقرت فيه ٠ أما المسلمون السنيون فمنتشرون في بقاع البلاد العربية والاسلامية كافة : في سوريا والعراق والحجاز ومصر والاردن واليمن ، في الهند والصين ويوغوسلافيا وتركيا وبلغاريا وروسيا وفنلندا ، في شمال افريقيا ووسطها وجنوبها ، فبوسعهم أن يجدوا اخوانا لهم يتعاونون معهم في مختلف الميادين أينما اتجهوا ٠ وهم خير ضمانة لاستقلال لبنان وصون مركزه ٠ وخير ضمانة لطوائفه المسيحية التي يمكنها أن تعيش محتفظة بكيانها وتقاليدها ودينها ، كما كانت تعيش في عهد الدول الاسلامية العربية محترمة محمية ، موفورة الكرامة ٠

الرئاسة الأولى[1]

قبل الحرب العالمية الاخيرة حضر الى بيروت « اميل كارتر » منتدبا عن شركة صناعية كيمائية لزيارة محلين تجاريين متنافسين في الثغر ، طلب كل منهما وكالة تلك الشركة في لبنان وتقدم بعرض سخي مماثل لعرض منافسه٠ ولما كان من المستحيل منح الوكالة للمحلين ، كما يقضي العرف التجاري ، فقد أوفدت الشركة مندوبها السيد كارتر للدرس واختيار الانسب ٠

كان هذان المحلان التجاريان يتمتعان بسمعة طيبة ، ورأسمال متقارب ، ويعرفان في الاسواق بمعاملاتهما التجارية الدقيقة ٠ فأشكل على المندوب التمييز ، وتريث في اختيار الاصلح ٠ وكان أحد هذين المحلين مسيحيا ، والاخر مسلما ٠ وكان صاحب المحل المسيحي يتمتع بنفوذ في قصر الرئاسة فخطرت في ذهنه فكرة استثمارية أوحتها المصلحة التجارية ، وبلورتها العصبية الطائفية ٠ فطلب موعدا من الرئيس اللبناني الاول لتقديم هذا الضيف الكريم ٠٠ والخبير الفني الكبير للقصر ٠ ودعا الرئيس هذا الزائر الى مأدبة عشاء تعرف حضرته خلالها الى بعض الشخصيات البارزة ٠٠ وفي الصباح أعد تقريره للشركة طالبا منها منح الوكالة للمحل المسيحي ٠ ووافقت الشركة على ذلك ومنحت المحل الوكالة ٠

هذه قصة واقعية ٠ كنت واقفا على دقائقها ، ولم يسردها علي أحد بدافع التعصب الطائفي أو المصلحة التجارية ٠

ترى لو كان الرئيس الاول مسلما اما كان رأي الخبير يتغير ؟٠ أو لو كانت الرئاسة بالتناوب دورة للمسيحيين ودورة للمسلمين ، اما كانت الوكالة تمنح صدفة لصاحب النفوذ في أحد الدورين ٠٠ ان الوضع الاجتماعي والاقتصادي في لبنان مبني على الاقطاع والنفوذ الطائفي ٠٠ هذه حقيقة لا

سبيل الى نكرانها . ومنصب الرئاسة الاولى في لبنان يجب أن يكون من حق الطوائف الكبرى « الطائفة السنية » .

نحن لا نشك في اخلاص الرئيس الحالي لقضية البلاد ، ورغبته في اقامة ميزان العدل بين الطوائف . ولكننا في بلد ديمقراطي كل المناصب فيه عرضة للتغيير والتبديل . ومن حقنا ، كمسلمين ، أن نطالب بأن تكون الرئاسة الاولى دورية ، مرة للسنة ، ومرة للموارنة ، وأن تكون نيابة الرئاسة أو رئاسة الوزارة لطائفة ثالثة . فالواقع أن نفوذ الرئاسة الاولى يطغي في كل الادوار التي عرفها لبنان ، على نفوذ الوزارات مهما اختلف رجالها .

قد يحتج الذين يريدون بقاء هذا الكيان مبنيا على الطائفية بأن الموارنة يشكلون أكثرية في البلاد . قل هاتوا برهانكم ... وتعالوا الى احصاء دقيق تجريه لجنة من الخبراء الدوليين لا مصلحة لاعضائها في الموضوع ، يعاونهم موظفون نزيهون من بقية الطوائف على قدم المساواة .. ونحن على استعداد للرضوخ الى نتائج هذا الاحصاء .

ويتبع منصب الرئاسة الاولى بقية المناصب ذات الشأن في هذه الدولة الفتية . لقد فقد المسلمون في عهد الانتداب بسبب سلبيتهم وتمردهم وابتعادهم عن التعاون مع الفرنسيين ، أرفع المناصب وأكثر الوظائف ، فهل يجوز أن يظلوا محرومين من حقوقهم في عهد استقلالي بني على نضالهم وجهادهم وتضحيتهم لمصالحهم في سبيل التخلص من الاستعمار . ان مركز الرئاسة الاولى يتبعه مركز قيادة الجيش والامن العام والمديرون الذين يبلغون العشرين في جهاز الدولة .. فهل نال المسلمون حقوقهم الشرعية في هذه المناصب ؟؟.

تعالوا أيضا الى احصاء دقيق لهذه المراكز الكبيرة وموظفيها ، ونحن مستعدون للتفاهم على ضوء النتائج العادلة التي يفرضها هذا الاحصاء .. تجريه لجنة من الخبراء الدوليين لا مصلحة لاعضائها في الموضوع ، يعاونهم موظفون نزيهون من بقية الطوائف ونحن مستعدون للتفاهم على ضوء النتائج العادلة التي يفرضها هذا الاحصاء !!.

فَلْنَخدَعِ الغَرب كَمَا يَخْدَعنَا !

لنا في حوران ، بالقرب من درعا ، قرية كبيرة تشاركنا في ملكيتها عائلتان عريقتان : احداهما مسيحية والثانية مسلمة . ولقد كلفتنا تلك القرية نفقات باهظة حتى تمكنا من الاحتفاظ بها . اخترنا لها العملاء والشركاء والدعاة، ووضعنا عليهم طابورا خامسا ليراقب أعمالهم ويحصي تصرفاتهم ، وفعلنا كما تفعل الدول الاجنبية في بلادنا تماما لتضمن مصالحها .. وترقبنا أن تكون النتائج باهرة .. وأن نكسب في صفوفنا ، نحن الملاكين أولئك ، العملاء وما يتبعهم من مزارعين وفلاحين وطابور خامس لنتعاون معهم على استثمار خيرات هذه الارض الطيبة .. ولكنهم ويا للاسف .. أكلوا الطعم .. واتفقوا جميعهم سرا علينا وعلى خداعنا نحن أصحاب الارض الذين تكبدنا في سبيل اصلاحها أموالا طائلة حتى أصبحت قابلة للانتاج . لقد وحدت بينهم المصالح الشخصية فاتفقوا علينا وخدعونا .

ان لفرنسا وانكلترا مطامع في لبنان وسورية بل في كل بلد عربي منذ أكثر من قرن . ولهما عملاء ودعاة وطابور خامس ليس هنا فحسب بل في جميع البلاد العربية . ولقد برزت هذه المطامع بعد الحرب العالمية الاولى بشكل صراع عنيف بين الدولتين . ولكن ذلك الصراع كان ينتهي دائما بالاتفاق علينا.
ثم جاءت أميركا بعد الحرب الاخيرة تفتح عينيها على هذه البلاد ، وتود أيضا أن تكون لها حصة الاسد منها .. وها هي الدول الثلاث .. ومن يدري لعل وراءها دول أخرى أيضا كاسرائيل وغيرها .. تطمع في هذه البلاد .. وتتفق جميعها على انتهاج سياسة واحدة لا تتضارب فيها الاهواء بل تتفق على اقتسام الخيرات .. وتوزيع المصالح ..

فلماذا لا نتفق نحن على خداع هذه الدول كما تتفق هي على خداعنا ؟؟

لماذا لا نساومها ونفسد عليها خططها المشتركة التي تستهدف دائما استثمارنا والاستيلاء علينا سياسيا وثقافيا واقتصاديا ؟

اذا كان الخداع رذيلة في الفرد ، فهو فضيلة في جماعة تود أن تحافظ على كيانها ووحدتها ومصالحها الحيوية ·

ان لنا من ذكائنا واختبارنا وثقافتنا ما يخولنا أن نلعب هذا الدور · وان بين سياسيينا في لبنان والبلاد العربية من لا يقل ذكاء ودهاء عن أتلي ومارشال وترومن وبيدو وغيرهم من الساسة الحديثي العهد · لكن المصالح الشخصية والطائفية والاقليمية أعمت قلوبهم وأبصارهم عن كل خطر يحيط ببلادهم · يجب أن نتعاون مع الدول العربية للقضاء على اسرائيل سياسيا واقتصاديا ثم نتعاون من جديد على خداع الدول الغربية التي تهزأ بنا اليوم وتقرر مصيرنا دون أن يكون لنا يد في هذا المصير ·· فنساوم على مطالبنا ، ونرفض ، ولو مرة واحدة ، ما يملى علينا · ونهدد ونتوعد لنثبت وجودنا ، ونلين ونتسامح اذا شعرنا أن في تسامحنا ضمانة لمصالحنا ·· وهكذا نخدع الغرب كما يخدعنا ونهزأ به كما يهزأ بنا ·

اننا قوة لا يستهان بها في هذا الشرق ، قوة تود أقوى الدول أن تخطب ودها · ولكنها قوة لا وزن لها اليوم في الميزان الدولي لانها متلاشية متفسخة ، فاذا قدر لها أن تتوحد وتتضافر جهودها فستلعب دورها الخطير في الحرب القادمة وستقرر مصير الحضارة وتساهم في بنائها من جديد بعد الحرب الجديدة على مبادىء وتعاليم لن تنبثق الا من الشرق ·

العروبة في لبنان

العروبة ، كما أفهمها ، ظاهرة شاملة لمجموع الروابط الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية بين الشعوب العربية ، المتفاوتة في درجة أوضاعها الاجتماعية ، وبيئاتها الطبيعية · وهذه الروابط تستند الى أصول ثابتة ، تمتد جذورها الى أعماق الارض والنفس · فهي تقوم على أساس التاريخ المشترك الذي طبع البلاد العربية بطابع متقارب ، فوحد بين لغاتها ، وقرب بين عاداتها وتقاليدها ، ووضع أسس الثقافة والتوجيه فيها ·

ولا يمكن للفكرة العربية أن تتبلور وتتضح الا اذا انتقلت من عالم المثالية الى عالم الواقع ، فلامست شعورنا وحياتنا ، وجعلت الفرد منا يشعر بشخصية أمته ، بهذا المركب الاجتماعي الاقتصادي النفساني الذي نسميه أمة ، والذي يفرض على الفرد أن يجمع الى فهمه نفسيته فهمه نفسية أمته ، وربط مصالحه بمصالحها ·

والعروبة غنية بالامكانيات الكبيرة التي يمكن أن تستغل لمصلحة العرب· وهي سبيلنا الوحيد نحو التفاهم والاستقرار · وما هذه الانقسامات التي نراها بين العرب اليوم سوى نتيجة منتظرة لضعف الشعور القومي وانعدامه فيهم ·

ولا ريب أن موقع البلاد العربية من أهم المواقع الاستراتيجية في العالم بأسره · فهي حلقة اتصال بين القارات الثلاث : آسيا وأوروبا وافريقيا · وفي مفترق الطرق بين المواصلات العالمية برا وبحرا وجوا ·

ولهذا الموقع أثر خطير في تاريخها القديم والحديث · اذ جعلها مطمع الكثير من الامم والشعوب · كما أن اعتدال مناخها ، والثروة الكامنة في تربتها ، ولا سيما الثروة البترولية ، حولت أنظار العالم اليها ، وجعلتها ميدانا

تتنافس على كسبه الدول · وهذا الموقع الطبيعي ، هو الذي جعلها مركزا للطرق التجارية العالمية ، ومحطة لمرور الجيوش الغازية منذ فجر التاريخ ، وهو الذي جعل مصيرها مشتركا في الحوادث التاريخية الكبرى ، شاء سكانها أم أبوا · والتاريخ القديم والحديث يؤيد قولنا هـذا · فنحن لا نعرف فاتحا غازيا ، أو دولة محاربة وقفت في غزوها واجتياحها عند حدود العراق مثلا ، وتركت سوريا ولبنان وشأنهما ، اذا كانت آتية من الشرق الاسيوي · أو أنها فتحت سوريا ولبنان ولم تتابع غزو العراق ، اذا كانت آتية من الغرب أو الشمال بطريق البر أو البحر · وهكذا قل في المصالح التجارية والاقتصادية والثقافية · فلقد كانت على امتداد التاريخ مرتبطة بعضها ببعض ·

وقد تركت الشعوب التي سيطرت على البلاد العربية في أزمنة التاريخ المختلفة آثارا جنسية أو لغوية أو عمرانية · مما جعل هـذه البلاد مستودع سلالات وآثار وحضارات · ولكن الموجة التي طغت على تلك الرواسب جميعها، وبوتقتها وصهرتها وأذابت كل أثر لها ، هي الموجة العربية التي نزحت من الجزيرة ، وفتحت هذه البلاد ، وكونت فيها أسس العناصر التي تتألف منها ثقافة الامة عادة ، وهي اللغة والتراث الفكري والعادات ·

فالروابط المتوفرة اليوم بين البلاد العربية بارزة بشكل لا يسع ، حتى المتحامل الاعمى في تحامله أو جهله ، انكاره · فأوضاعها الزراعية والتجارية والصناعية ، أي الاقتصادية متقاربة · وهي أساس الحياة ، وأقوى روابط المصلحة المشتركة بين الناس · والحركات الوطنية التي برزت فيها منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، واستمرت الى يومنا هذا ، وحدت بين مشاعرها، وقربت بين آمالها وأمانيها ، وجعلت كل فرد منها يؤمن بأن القضية ليست قضية عاطفية فحسب ، وانما هي قضية مصير مشترك · فالحرب الاولى أثبتت للعرب جميعهم سوء نية الحلفاء ومطامعهم يوم جزأوا البلاد العربية بدل أن يوحدوها ، وتقاسموها واستثمروها بدل أن يمنحوها حريتها واستقلالها ·

كما ان الحرب الاخيرة ألقت عليهم درسا أشد وأقسى من الحرب الاولى · فكانت خسارة فلسطين بسبب سياسة التفرقة التي نجحت في ايجادها تلك الدول الاجنبية الكبرى · وكانت العصبيات العائلية في الاسر الحاكمة ، وفي أشكال الحكم ، وكانت الاقليمية الضيقـة في كل بلد مما يسر بقـاء الاقطار العربية حتى اليوم تحت نير الاستعمار الغربي ظاهرا وباطنـا ، ظاهرا عـن طريق المعاهدات الصريحة والسرية ، وباطنا عن طريق فرض السياسة التـي

تشاؤها تلك الدول على الحكومات العربية الشبه مستقلة ·

وها هي اسرائيل ، بعد أن ابتلعت فلسطين ، تستفرد العرب اليوم دولة دولة ، وبقعة بقعة ، وتنتهز فرصة انقسامهم وفتور العلاقات بينهم لتتوسـع على حسابهم · وها هي سوريا اليوم تقف وجها لوجه أمام اسرائيل لتجابـه عدوانها ، بينما تقف بقية البلاد العربية وقفة المتفرج ·

والعروبة التي نسعى لتحقيقها تقوم على ثلاثة أركان يجب أن تتوفر في « العربي » لتتم عروبته · وقد حددها أحد مفكرينا العرب بقوله : (١)

« انها عروبة اللسان ، وعروبة العقل ، وعروبة القلب · فعروبة اللسان يقصد بها اللغة الفصحى ، لغة التأليف والانتاج ، لا اللهجات العامية المحلية · فكلما رسخت أقدام العربي في ميدان لغته ، كلما رسخت عروبته ·

ويقصد بعروبة العقل ذلـك الوعي والاحساس العميق بأحداث الامـة الشاملة لحياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية ·

ولا يكفي أن يتوفـر « للعربي » هذان الركنان حتى تتـم « عروبته » · فهناك الركن الثالث والاهم ، وهو عروبة القلب · ويقصد بها الايمان ايمانا راسخا بحق الامة العربية في الحياة الحرة · فعروبي القلب هو الذي يؤمـن بأن أمته ساهمت مساهمة أصيلة فعالة ، في بناء الحضارة العالمية ، وانهـا مزمعة المساهمة من جديد · وهذا الايمان لا يمكن أن يكون أصيلا في نفسه الا بعد أن يلم بالعناصر الخالدة التي يقوم عليها تراث أمته ·

ان « العروبي » الذي تتوفر فيه هذه الاركان الثلاث هو غير « العربـي » بمفهومه الجنسي · فقد يكون « العربي » « عربيا » ولا يلزم العكس · فشوقي الكردي ـ التركي الاصل المصري الجنسية أمير من أمراء العروبيين · وأمين الريحاني اللبناني الاصل والجنسية والماروني المذهب عروبي · بل سيد من سادات العروبة هكذا نفهم العروبة اليوم في المصريين والنجديين والسوريين واللبنانيين والعراقيين وسواهم · انهم جميعـا « عروبيون » وان اختلفت

(١) الدكتور اسحق موسى الحسيني ·

أصولهم ومذاهبهم ، وأقربهم الى العروبة الحق ، أصحهم لغة ، وأعمقهم وعيا ، وأدقهم شعورا واحساسا بماضي أمته وحاضرها ومستقبلها ٠ ورب « عربي » جاهل أصيل من صميم الحجاز ، أبعد عن « العروبة » من مهاجر لبناني في اميركا ٠ فالاول ليس فيه اليوم من آثار « العروبة » أثر ، فلهجته البدوية البعيدة عن الفصحى ، ووعيه المفقود ، وجهله المطبق ، عناصر باعدت بينه وبين العروبة ، بينما توفرت في الثاني عروبة اللسان وعروبة القلب ٠

وعقيدة « العروبة » لا يمكن أن تنتهي بنا عند هذه العلاقات المعنوية ، بل لا بد لها أن تتجه اتجاها ماديا نبني عليه صلاتنا السياسية والاقتصادية ٠

اني أتساءل ، وأنا لبناني ، « عروبي » ماذا يستفيد مواطني اللبنانيون من ابتعادهم عن « العروبة » ؟ ماذا يستفيدون سياسيا واقتصاديا وثقافيا ؟؟ ليتني أستطيع ادراك تلك الفوائد فلعلي اشاطرهم رأيهم كمواطن يتوقف مصيره على مصيرهم !! ٠٠

لقد خلقت فرنسا في لبنان ، في عهد الانتداب ، ولا أقول خلق التاريخ ، وفرضت الجغرافيا ، فكرة الوطن القومي المسيحي كما خلقت انكلترا في فلسطين فكرة الوطن القومي اليهودي ٠ وعززت فرنسا تلك الفكرة بالدعوة الى الفينيقية والاشعاع والحرف وأبجدية النور ٠٠ الخ ٠٠ وبذلت جهودا جبارة لتخلق تاريخا من العدم ، وجغرافية اقليمية مستقلة ، تغير وجه الكرة الارضية ، ولغة عامية تمكن اللبنانيين من الانفصال عن الفصحى ، والتحدث بلهجة عامية ركيكة ، واستبدال العربية الفصحى في الاشعاع والحرف بالفرنسية وحدها ٠ ولكن فرنسا فشلت في دعوتها هذه كما فشلت في سياستها ، الا أنها خلقت لنا مشاكل لا بد أن تحل ، اذا توفرت النية وتغيرت العقلية ، واستمر عامل الزمن في تطوره ٠

واذا أردنا أن نجابه الحقائق في لبنان ، دون لف ودوران ، فاننا نجد اللبنانيين منقسمين ، في وجهة نظرهم الى « العروبة » ، قسمين :

فالموارنة يرون ان العروبة دعوة تقوم على أساس الدين الاسلامي ، وأنها وحدة دينية بين المسلمين أكثر ما هي وحدة قومية بين العرب ٠ وانهم اذا تحققت أصبحوا هم أقلية في هذا الخضم الاسلامي الواسع ٠ والمسلمون يرون ان « العروبة » ، كما ذكرنا ، ظاهرة تقوم على أركان وروابط مادية

وروحية بين العرب ، وان الاسلام أعز شأنها ، ورفع مكانتها ، ولكنها كانت متوفرة بين العرب قبل الاسلام والنصرانية ٠ وان دعائمها الثلاث كلما توطدت، جمعت صفوف العرب ، وشدت أزرهم ، وأمنتهم على مستقبلهم ومصالحهم ٠ وأن تقدم العقل والحضارة في العصر الحديث ، واتجاه العالم نحو التكتل على أساس وحدات تتسع وتضيق بقدر ما يتوفر فيها من روابط وعناصر مشتركة ، كل ذلك لن يسمح ، بعد اليوم ، للعقليات الضيقة الرجعية في تفكيرها أن تحتل مكانها في هذا الصراع العالمي ٠

ونحن نعتقد بأن اللبنانيين أقرب الشعوب العربية الى فهم فكرة « العروبة » بعد السوريين ٠ ولا يجب أن ننسى ما قاموا به من تضحيات ، وما بذلوه من جهود مادية ومعنوية في هذا الحقل ٠ فالعروبة دعوة قامت على أكتافهم وتضحياتهم ٠ ولا نعتقد أن الشهداء الذين علقوا على أعواد المشانق من اللبنانيين كانوا يعملون للبنان كوطن قومي مسيحي أو اسلامي ٠ ولا للبنان كوطن مستقل عن البلاد العربية ، بل كانوا دعاة وحدة عربية شاملة يعيش فيها المسلم الى جانب المسيحي في رغد وأمن وسعادة ٠ واستشهدوا وهم يرددون : « نموت ليحيا العرب » نموت لتحيا الامة العربية ، وقد كان فيهم المسيحي والمسلم ، ولم يكن تفكيرهم يومذاك فاسدا ملوثا يقوم على العصبيات الدينية كتفكيرنا اليوم ٠ هؤلاء هم الشهداء اللبنانيون الذين نجدد ذكراهم كل عام ، ولكننا بكل أسف ، لا نفهم من هذه الذكرى الا مظاهرها الخارجية ٠ أما فكرتها العميقة ، وأما دعوة أولئك الشهداء الذين اعدموا في سبيلها فقد ضربنا بها عرض الحائط ، لنشبع أنانيتنا التي تعمل في نطاق ضيق ، وتدور حول نفسها « كحمار الناعور » ٠

ان كل دعوة اليوم في لبنان الى قومية تقوم على سلالات منقرضة ، وكل عزلة اقليمية تقوم على طابع الانكماش ، وكل وطنية تبنى على أساس طائفي ، لن تؤدي بلبنان الا الى الخراب والدمار ، والتفسخ وانصراف اللبنانيين الى النضال الخفي ضد بعضهم البعض ، كما تنزع الثقة من نفوسهم ، وتفقدهم روح الاطمئنان ، وتطوح بجهودهم التي يبذلونها في سبيل وحدتهم الوطنية ومكانتهم الدولية ٠

وزارة التقارب وازالة التعصب

في لبنان مظاهر طائفية مؤلمة لا مبرر لوجودها الا التعصب والرغبة في تحنيط النزعات الطائفية في القلوب والرؤوس ·· والمعاهد والبيوت ·· مظاهر ان دلت على شيء فانما تدل على ان لبنان في أوضاعه الداخلية شاذ ، نسيج وحده ، لا شبيه له ولا مثيل ، في هذه الدنيا الواسعة ·

من شهد منا أخيرا عيدي ميلاد الرسول الاعظم محمد بن عبد الله ورسول السلام والرحمة عيسى عليه السلام وما حدث فيهما يدرك مدى فشل فكرة التقارب بين الطوائف في عهد الاستقلال ، ويقدر كيف ان الجهود التي بذلها أبطال العهد لازالة المخاوف ، وتقريب وجهة النظر لم تسفر عن شيء ·

جبهات حربية فتحت في البسطتين والزيدانية والمصيطبة ورأس النبع ، تقابلها جبهات معادية فتحت في الاشرفية الفوقا والجميزة وساحة الاتحاد ··· قنابل ورشاشات وطرابيل وتوميجن ، بل ومدافع تنصب على السطوح وفي الشرفات ·· أما المسدسات والمفرقعات فهي لعب أطفال ··· هذه مظاهر الابتهاج الطائفي في لبنان ·· المسلمون يقولون للمسيحيين ·· نحن هنا هذه بلادنا ·· دفع آباؤنا وأجدادنا دماءهم ثمنا لها ، ونحن مستعدون لتضحية الغالي والرخيص في سبيلها ·· فافتحوا أعينكم · والمسيحيون يجيبون : لبنان وطننا القومي فابقوا فيه أقلية راضخة ، أو أكثرية مسحوقة ، أو فارحلوا فديار الاسلام واسعة أمامكم ·

هذا مشهد ·· واليك مشهد آخر ·· من هذا الشريط الطويل ··

غبطة البطريرك يحمل لقب سيد لبنان ·· لماذا يا سادة ؟؟· انه سيد طائفته لا سيد لبنان · فللمسلمين مفتيهم ومجتهدهم وشيخ عقلهم · وللروم

الكاثوليك بطريركهم · وللروم الارثوذكس كذلك · فلكل راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته ·

ويتحرك موكب « سيد لبنان » من الديمان الى بكركي للاشتاء ·· ومن بكركي الى الديمان للاصطياف ·· فتتحرك معه الدولة بما فيها من محافظين وقائمقامين وموظفين · وتتحرك القرى والارياف ، فتنصب أقواس النصر ، ويحتشد الالوف على الطرقات التي سيمر بها الموكب ، ويوضع البروتوكول الخاص فيتقيد به محافظ المنطقة وقائمو مقاميها وكبار موظفيها ··

ويسير الموكب كما كانت تسير مواكب الغزاة الرومانيين أيام الامبراطورية ··· ولكنه يغزو الارواح والقلوب بعطفه وايمانه ·

وينتقل سماحة المفتي من مشتاه في بيروت الى مصيفه في بحمدون ، وبالعكس ، دون أن يعلم به أحد ، ودون أن تتحرك له ركاب ، رسمية أو غير رسمية · وهكذا شيخ العقل وقاضي المذهب الجعفري وبطريرك السريان والروم وغيرهم من كبار رجال الدين ·

امتيازات واستقبالات تمنح للبعض ، ويحرم منها البعض الآخر ·

ومنظر ثالث من مناظر لا تنقطع · مئات بل الوف من رجال الدين ينتشرون في لبنان ساحله وجبله يبشرون بالمذاهب ويهدون الى ارشاد والصلاح ويأمرون بالمعروف ينهون عن المنكر ·· لكن ليس بينهم من يأمر بالاتفاق والتوحيد بين عناصر هذا الوطن المسكين · أجمل الاماكن في لبنان وأخصب الاراضي وأكثرها انتاجا هي أديرة وأملاك للرهبان والراهبات ، أما الوف الفلاحين فلا يملك الواحد منهم شبر أرض ·

مستشفيات الحكومة اللبنانية الرسمية في الصنائع وبعبدا وزحلة بنيت بأموال المكلفين اللبنانيين من مسلمين ومسيحيين ، فلماذا تزود هذه المستشفيات بكنائس ولا تزود بمساجد ؟ ولماذا يوضع الصليب فوق كل سرير فيها ؟ هل هي مستشفيات طائفية خاصة ؟ هل مرضاها من طائفة واحدة ومذهب واحد ؟ وكيف تبيح الدولة لنفسها أن تهدم مسجد مستشفى الصنائع الذي بني منذ العهد التركي وتبني مكانه كنيسة وهي دولة لا طائفية ؟؟

ولوحة الجلاء ··· لماذا لا يوضع فيها التاريخ الهجري الى جانب التاريخ

الميلادي ؟ أليس نصف سكان الجمهورية اللبنانية ، على الاقل ، مسلمين يؤمنون بهجرة محمد عليه السلام ويعتبرون التاريخ الهجري تاريخهم الرسمي؟ وهل يشعر من يقرأ هذه اللوحة الآن أو بعد مائة سنة انه في بلاد نصف سكانها من المسلمين ؟

في لبنان مؤسسات كبرى للصليب الاحمر • ومن المعروف ان حكومات سوريا والعراق ومصر والاردن والحجاز وتركيا وغيرها ، قد اتخذت الهلال شعارا لهذه المؤسسات الانسانية النبيلة الغرض • ومنها ما جمع بين الصليب والهلال فلماذا نتجاهل الهلال في لبنان كشعار ونحاربه ؟

وهذا الارز الذي اتخذناه شعارا لدولتنا نحترمه ونقدسه ونؤمن بخلوده على مدى الاجيال • لماذا نبني في غابته كنيسة فحسب ؟ أليست تلك الغابة شعارا للبنانيين جميعا ؟ وهل اللبنانيون من دين واحد ؟ ولم لا نبني مسجدا الى جانب الكنيسة أو نحولها الى معبد حديث مشترك لجميع المذاهب يؤمونه عند زيارة تلك الغابة فيشعرون ان الارز لهم جميعا ، وأنه شعارهم المقدس على اختلاف مللهم ونحلهم •

اذا أردت أن أستمر في عرض هذا الشريط أمام القارىء فان مناظره تتجدد وتتوالى كل يوم ولا تنقطع • نحن في هذه البلاد بحاجة الى وزارة جديدة •• وزارة للتقارب وازالة التعصب • انها أفضل بكثير من هذه التي فتحناها أخيرا لاحد المعارضين بغية اسكاته ، فأطلقنا لسانه وقلمه ليكونا مع الحكومة بعد أن كانا عليها • تلك الوزارة التي أسميناها وزارة الانباء •

لو قدر لي أن أكون حاكما في هذا البلد لحولت كثيرا من موازنة الوزارات التي لا نفع فيها لانشاء هذه الوزارة الجديدة للتقارب وازالة التعصب• انها وزارة ذات مهمات جسيمة عليها تتوقف وحدة البلاد • فمن مهماتها :

البحث عن أسباب التعصب وازالته ، وتوزيع الوظائف والاعمال على أساس الكفاآت لا الطائفية والوساطات ، ووضع منهج ديني رسمي تجبر على التقيد به المدارس الرسمية والاهلية والارساليات ، منهج يلقن المسلم بعض التعاليم المسيحية ، والمسيحي بعض التعاليم الاسلامية ، فيعرف كل منهما جوهر المعتقدات عند الآخر • ومن مهمات هذه الوزارة ان تمنع رجال الدين من ارتداء ملابسهم وأزيائهم الدينية الا في المساجد والكنائس والاديرة ، وان

تراقب بشدة فصل الدين عن الدولة • فالدين لله والدولة لكل مواطن لبناني••

واذا فشلت هذه الوزارة ، لا سمح الله ، في تحقيق هذه المهمات فلا سبيل في اعتقادنا لمقاومة التعصب الا بتعصب من نوعه • على رجال الدين من المسلمين أن يرخوا لحاهم بمقدار لحى الاكليروس حتى لا يكون هناك تفاوت كبير في التطويل والتقصير ••• وعليهم أن يبنوا مركزا دينيا عظيما في الجبل وبيروت لا يقل في ضخامته وعظمته عن الديمان وبكركي ، وأن يطلبوا من الحكومة المحافظة على البروتوكول في الاستقبال والتوديع • فاذا تحرك ركاب سماحة المفتي لزيارة طرابلس أو صيدا فينبغي أن يستقبل من المحافظين والقائمقامين طوال الطريق كما يستقبل غبطة البطريرك •• وهكذا ••

أيها المواطنون اللبنانيون •

اذا كان التفاهم سائدا بين الطوائف فينبغي أن يشمل كل حياتنا ، ويجب أن تقوم أسسه المتينة الدعائم على العدالة الاجتماعية في كل مظهر من مظاهرنا •

ان الطائفة الاسلامية في لبنان لا ترضى عن هذا الوضع الاجتماعي السائد •• فأينما اتجهت ، وكيفما التفت لا ترى الا مظاهر تعصب وتكتل وغبن في الدوائر والوظائف والمعاملات • في الاحكام وتصرفات الحكام ، في النظام والامن العام ، في المدارس الاجنبية والتبشيرية والوطنية • في الكتب والمؤلفات والصحف والمجلات •• فكيف تريدون أن يكون هناك اطمئنان واستقرار في لبنان ؟

سأل أحد القضاة المسيحيين « باشكاتبا » مسلما •• لماذا لا نسمع من المسلمين في لبنان الا تأففا وتذمرا ؟ لا يرضيهم شيء ، ولا يعجبهم شيء •• لماذا ؟

قال « الباشكاتب » أنا يا سيدي القاضي موظف وليس لي دخل في السياسة •• ومر على هذا السؤال شهر ، ثم جرت حادثتا سرقة في يوم واحد وكتبت عنهما الصحف • وكان بطل الاولى مسيحيا قبض عليه بالجرم المشهود واعترف بسرقته • أما البطل الثاني فقد كان متسولا مسلما دخل بيتا رأى بابه مفتوحا ليستجدي فرأته الخادمة فصرخت فهرب المسكين ، ولكن الناس أدركوه وقبضوا عليه في الشارع وسلموه للشرطي • وعبثا حاول أن

يقنع التحقيق أنه متسول ٠٠ وفي اليوم الثاني أرسل هذا المسكين الى السجن وأطلق سراح الثاني بكفالة ٠٠ قرأ « الباشكاتب » هاتين الحادثتين فجمع المعلومات عنهما ووضعهما في ملف ووضع الملف على مكتب القاضي ٠٠ دخل القاضي في الصباح وقرأ الملف فاستدعى « الباشكاتب » وقال له وهو يبتسم : فهمت ماذا تعني بوضع هذا الملف ٠ قال « الباشكاتب » سألتني منذ شهر لماذا يتذمر المسلمون من الاوضاع في لبنان ؟٠٠ وهذا هو الجواب ٠

الوطن القومي المسيحي

ان فكرة الوطن القومي المسيحي الماروني التي يعتنقها بعض اللبنانيين ويبشرون بها ، ويوجهون سياسة لبنان على أساسها ، هي التي تشكل أشد الاخطار على وحدة اللبنانيين ٠ فالطائفية والاقطاعية ونفوذ الافراد والاسر وفقدان التوازن الاجتماعي بين الطبقات أمراض اجتماعية فتاكة يمكن علاجها مع الزمن وانقاذ البلاد منها ٠ ولكن الخطر الهدام الذي يجثم على العقـول والافكار ، فيفرق بينها ، ويجعل كل فئة منها تميل الى كتلة أجنبية تحمي مصالحها ، هو خطر الوطن القومي الذي لا يقدر دعاته عواقبه الوخيمة ٠

سيظل كل مسلم داعية الى الوحدة السورية أو العربية بتطرف واندفاع دون قيد أو شرط ، ما زالت نغمة الوطن القومي الشاذة ترن في أذنيه ٠ بل سيظل يفكر دائما بدولة أو دول اسلامية تحمي مصالحه وتحفظ كيانه في هذا الوطن ٠

وكيف تريده أن يطمئن وهو يرى بعينيه ، ويلمس بنفسه سياسة البلاد الداخلية والخارجيـة تبنى على هـذا الاساس ، وأوضاع البـلاد الثقافيـة والاقتصادية والاجتماعية تنظم بوحي من هذا الاتجاه ؟؟

وسيظل الماروني المسيحي يحلم بعودة فرنسا أم الكثلكة وحامية المسيحية في الشرق الى لبنان ، لانها الضمانة الوحيدة لتحقيق فكرة الوطن القومـي المسيحي ٠ بل هي التي خلقت هذه الفكرة وسعت اليها ٠ وبنت سياستها طيلة ربع قرن على أساسها ٠ وهكذا سيظل كل منا يغني على ليلاه ، ويكون معول هدم في بناء هذا الاستقلال أكثر مما هو عامل بناء واتحاد ٠

كنا مرة مع بعض الشباب الموارنة في الجبل نتناقش حول الفينيقيـة والعروبة والطائفية و ٠٠٠ الخ ٠ فقال أحدهم : « أنتم المسلمون لا تؤمنون بلبنان ولا تحبون الفينيقيين » ٠ فقال أحدنا فورا : « ومن قال ذلك ٠٠ نحن يا صديقي نؤمن بلبنان ونحب الفينيقيين بقدر ما تؤمنون أنتم بالوحدة العربية وتحبون العرب والعروبة ٠٠ فاعمل حسابك ٠٠ » ٠

وَصِيَّتي الأخِيرَة

أود قبل أن أطوي هذه المذكرات أن أدون وصيتي الاخيرة لابناء وطني ٠٠

انني أدعو الى الغاء الطائفية من قوانين الدولة وتربية النشء اللبناني تربية وطنية تجعل المسلم يعيش الى جانب المسيحي في جو منعم بالاخاء والتعاون ٠ أما اذا بقيت الطائفية أساس الحياة في لبنان ، فاني أدعو طائفتي الى التفكير في مصيرها ومستقبلها ٠٠ فهي سائرة نحو الزوال والتلاشي اذا تخلت عن حقوقها ، وتساهلت في مركزها وانقادت الى الزعماء الذين يتاجرون بها كما فعلت حتى اليوم !!

اني أدعو رجال الدين أن يحافظوا على رسالتهم الروحية فان تدخلهم في سياسة الدولة وشؤونها أفسد علينا وعليهم أمور الدين والدنيا ٠ فحرمنا نعمة الاطمئنان التي يبعثها الايمان وولد فينا ، مسلمين ومسيحيين ، نوعا من القلق والحذر والتعصب الذي ينغص علينا عيشنا ٠

اني أدعو الحكومة أن تفصل الدين عن الدولة ، وأن تحد من نشاط رجال الدين على اختلاف مذاهبهم ، وأن لا تسمح لهم باستخدام نفوذهم الديني الروحي الا حين يداهم البلاد خطر أجنبي يتطلب منا حشد كل القوى الروحية والمادية للذود عن الوطن ، والدفاع عن الكرامة السليبة ، والحق المضاع ٠

اني أود أن أعيش ، ويعيش بعدي أبنائي وأحفادي ، في هذا الوطن العزيز ، في اخاء ومحبة مع مواطني المسيحيين ، لان البيئة ومصلحة الحياة المشتركة خلقت منا عنصرا واحدا ينبغي أن يتعاون ليبني دولة ، وينشيء أمة ٠ وأنا كلبناني مسلم ، أستطيع أن أتفاهم مع اللبناني الماروني على جميع الشؤون التي تضمن الخير المشترك لبلادنا ، اذا تجرد كلانا من تأثير الدعاوات الاجنبية،

والعصبيات المذهبية ٠

اني دونت هذه المذكرات باخلاص ، وكشفت فيها عن حقائق لا أقول أنها كانت مجهولة ، ولكن الكثير من المسؤولين وغير المسؤولين ، كانوا يدجلون ويمارون وينافقون ، في موقفهم منها محاولين طمسها بحجة « الحرص على وحدة الصفوف » ٠ وكان الاجدر بهم أن يقولوا : « بحجة الحرص على مصالحنا الخاصة » ٠

ان التاريخ يطوي كثيرا من الحقائق ، منها ما يبرز للملأ فيكون مصدر عظة وعبرة ومنها ما يظل مطويا ٠٠٠ وهذه صفحة من صفحات تاريخنا المؤلم دونتها كما شهدتها وعشتها ٠

٠٠٠ عيتاني

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
بيروت عام ٢٠٠٠	٥
مذكرات بيروتي	١٥
الاهداء	١٦
لم دونت هذه المذكرات ؟	١٧
السنة في لبنان	٢٠
الشيعة في لبنان	٢٣
الدروز في لبنان	٢٥
الموارنة في لبنان	٢٧
الروم الارثوذكس في لبنان	٢٩
آل شهاب	٣٢
الاتراك في لبنان	٣٥
فتنة ١٨٦٠	٣٨
الافرنسيون في لبنان	٤٠
الحزب السوري القومي	٤٢
هذا موظف نموذجي	٤٦

الموضوع	الصفحة

المعاهد الاجنبية	٤٨
الادب اللبناني	٥٢
الطابور الخامس	٥٥
العلاقات الاقتصادية	٥٧
السياسة الخارجية	٥٩
الرئاسة الاولى	٦١
فلنخدع الغرب كما يخدعنا	٦٣
العروبة في لبنان	٦٥
وزارة التقارب وازالة التعصب	٧٠
الوطن القومي المسيحي	٧٥
وصيتي الاخيرة	٧٦